

المجموعة الكاملة لمؤلفات الأستاذ

عبّاس محمود

العقائد

المجلد الثاني

العقائد الإسلامية - ٢

يحتوي على

فاطمة الزهراء والفاطميون
أهل البيت

دار الكتاب اللبناني - بيروت

عباس محمود
العقائد

فاطمة الزهراءُ والفاطميون
أهل البيت

دار الكتاب اللبناني - بيروت

تمهيد

ترد الاشارة الى الوراثة في مواضع شتى من هذه الصفحات التالية ، ونعول عليها في مناسبات شتى لتفسير بعض الأطوار . ومنها أطوار الجماعات أو أطوار الحركات التاريخية وأراني أهم بأن أضرب المثل فأبدأ بنفسى وبأثر الوراثة في كتابة هذه الصفحات وكتابة كثير من الصفحات في الموضوعات الاسلامية وما اتصل منها بالعترة النبوية على التخصيص .. ومن أمثالنا في الصعيد الأعلى ما معناه ان البيت اذا احتاج الى الخبز فهو أولى به من الجامع ولدت لأبوين من أهل السنة : أبى على مذهب الشافعى وأمى على مذهب أبى حنيفة ، وفتحت عيني على الدنيا وأنا أراهما يصليان ويتيقظان قبل الفجر لأداء صلاة الصبح حاضرة ، وربما زارنا أحد اخوالى في تلك الساعات المبكرة ذاهبا الى المسجد القريب أو عائدا منه الى داره



وفتحت أذنى كما فتحت عيني على عبارات الحب الشديد للنبي عليه السلام وآله ، فمولد النبي حفلة سنوية في البيت تترقبها نحن الصغار ونفرح بها لأننا نحن القائمون بالخدمة فيها . وأسماء النبي وآله تتردد بين جوانب البيت ليل نهار ، لأنها أسماء اخوتى أجمعين : محمد وإبراهيم والمختار ومصطفى وأحمد والطاهر ويس ، وشقيقتى الوحيدة اسمها فاطمة ، واسمى أنا منسوب الى عمّ النبي لا الى الأمير الأسبق : عباس حلمى الثانى كما كان يتوهم بعض معارفى . لأنتى ولدت قبل ولايته ، وأبيت فى المدرسة أن ألقب بلقب « حلمى » جريا على ما تعودته المدارس فى تلك الحقبة ، وبقيت منسوبا الى اسم « محمود » وهو كذلك من أسماء النبي ،

ولم يكن لأبى اخوة ، وانما كانت أختاه الشقيقتان تسميان باسم نفيسة
واسم زينب ، وأولادهم ينادون بالأسماء التى تغلب عليها هذه النسبة
الشريفة ..

ورثت هذا الحب الشديد للنبي وآله عليهم سلام الله ورضوانه ، وليس
هذا الحب الشديد بالمستغرب من أهل السنة لأنهم يدينون بدستور السنة
النبوية ، ولكنه كان فى بيتنا أشبه بالعاطفة النفسية منه بالآداب المذهبية ،
فاستفدت منه كثيرا فى دراسة تاريخ الاسلام

استفدت منه اننى كنت شديد التريث فى سماع كل دعوى من دعاوى
السياسة القديمة التى كانت تقوم على انكار حق ، أو انكار فضل ، أو
انكار نسب ، أو انكار ما من ضروب الانكار التى تمس تواريخ أهل
البيت النبوى من بعيد أو قريب ..

ولم استفد منه بحمد الله كراهية أحد ذى حق أو ذى فضل ، لأن
قداسة العظمة الانسانية تحجب عندى جميع هذه الصغائر التى تمس
تواريخ العظماء أجمعين ، وولعى بدراسة تواريخ العظماء من طفولتى
الباكرة عصمنى بحمد الله من غوائل هذا الصغار ..

ومن أثر هذه الوراثة فى ذهنى اننى لم أصدق ما كان فى حكم انواق
المقرر عن سياسة الامام ، وانه لم يكن له من السياسة نصيب ، فبحثتها
بحث الاشاعات ولم أعطها من بادىء الرأى شأنا أكبر من الاشاعات التى
تسرى على الأفواه بغير دليل ، أو يجيئها الدليل المختلق من صنع أصحاب
المنافع والمآرب فى سياسة الحاكم الغالب ، فهم مدافعون عن أنفسهم باتهام
الآخرين ..

ومن أثر هذه الوراثة فى ذهنى اننى قاربت سير العظماء الاسلاميين
و « النبوين » لأرضى ذهنى ، ولم يقنعنى أن أرضى بها عاطفة لا أستمد
من ذهنى شواهدا وآياتها ، فعظماء الاسلام عندى أعلام انسانية باذخة

تخولها مكان العظمة مناقب يكبرها المسلم وغير المسلم ، وليست غاية الأمر فيهم انهم أضرحة للتبرك وتلاوة الفاتحة والسلام وبهذه النزعة الموروثة أطرق باب الكلام في حياة الزهراء ، فانها - سلام الله عليها - قد تكتب لها ترجمة لأنها بنت محمد ، أو تكتب لها ترجمة لأنها زوج على ، أو تكتب لها ترجمة لأنها أم الحسن والحسين وبنهما الشهداء ، ولكنها مع هذه الكرامة قد تكتب لها ترجمة لأنها هي فاطمة ، ولأنها هي مصدر من مصادر القوة التاريخية التي تتابعت آثارها في دعوات الخلافة من صدر الاسلام الى الزمن الأخير

وهذا الذي قصدت اليه بكتابة هذه السيرة ، وبالبحث عن مكان الصلة بينها وبين المنتسبين الى فاطمة ، وعلى قلة الأخبار التي حفظت عن شخص فاطمة عليها السلام أرجو أن أكون على نهج التوفيق فيما أمكنني أن أستخلصه من ملامح هذه السيرة المباركة ومعالمها ونعود الى الوراثة فنقول : ان أول ما نضيفه الى بيان قوة اليقين ، أو بيان القوة الايمانية في نفس الزهراء ، انها ورثتها من أم وأب ، وقد غطى ميراثها من أبيها على كل ميراث ، ولكنه اذا اقترن بالميراث من أمها فقد بلغت اصالته مدى متصل الآثار فيما ورثته هي ، وفيما تورثه الأعقاب من بعدها ، وما أخلده من ميراث

فاطمة الزهراء

- * أم الزهراء ..
- * نشأتها ..
- * زواجها ...
- * بلاغتها ...
- * في الحياة العامة ..
- * شخصية الزهراء ..
- * الذرية الفاطمية ..

أمُّ الزَّهْرَاءِ

حفظ التاريخ لنا قليلا من أخبار السيدة خديجة - أم الزهراء - رضى الله عنهما ، ولكن هذا القليل كاف للتعريف بها ، وبما يمكن أن تورثه بنينا من الخلائق والسجايا ، لأنه يعطينا منها صورة كاملة لا تزيدنا الافاضة في الأخبار الا في التفصيل

ومن جملة الأخبار القليلة التي حفظت لنا نعلم ان الزهراء أنجبتها أم ذات فطنة ورجاحة ، وانها رضى الله عنها كانت غنية اليد غنية النفس بأكرم للمواطف الأثوية : عاطفة المحبة الزوجية ، وعاطفة الأمومة ، وعاطفة الايمان ..

كانت تسمى في الجاهلية بالطاهرة وسيدة نساء قريش ، لأنها جمعت الى مكانة النسب العريق مكانة الثروة الوافرة ومكانة الخلائق الموقرة ، وأهلها جميعا لم يحفظ التاريخ سيرة أحد منهم الا كان علما في الحكمة والدراية أو في الشجاعة والشمم ، كورقة بن نوفل وأسرة الزبير بن العوام

ولدت لأبوين كلاهما من أعرق الأسر في الجزيرة العربية ، وكلاهما ينتهى نسبه الى لؤى بن غالب بن فهر ، بل كانت أمها تنتسب من ناحية أمها كذلك الى هذا النسب المعرق في النبل والسيادة ، فهي فاطمة بنت هالة التى ينتهى نسبها كذلك الى لؤى بن غالب ، وهالة بنت قلابة التى ينتهى نسبها الى ذلك الجد الأعلى ، وقد اجتمع لها مع النبل مكانة الثروة الوافرة كما تقدم ، فكانت قافلتها الى الشام تعدل قوافل قريش أجمعين فى كثير من الأعوام

وأهم من هذا جميعه بالنسبة الى زوجة نبيّ ، والى جدة الأئمة من بيت النبوة ، انها كانت مفطورة على التدين وراثة وتربية ..

فأبوها خويلد هو الذى نازع تبعاً الآخر حين أراد أن يحتل الركن الأسود معه الى اليمن ، فتصدى له ولم يهرب بأسه غيرة على هذا المنسك من مناسك دينه ، وقال السهيلي فى الروض الأثف : « ان تبعاً روع فى منامه ترويعاً شديداً حتى ترك ذلك وانصرف عنه » فلا يبعد ان روعة خويلد ومراه وهو ينذر العاهل بالفضب الالهى اذا أقدم على فعلته قد شغل قلب التبع فتراءى له من المخوفات فى منامه ما أرهبه وثناه عن عزمه

وابن عم السيدة خديجة هو ورقة بن نوفل الذى رجعت اليه حين بدا لها من اضطراب النبى عليه السلام عند مفاجأته بالوحى ما أزعجها ، فركبت الى ورقة تسأله لعل له بالدين وعكوفه على دراسة كتب النصارى واليهود ، ولم تكن الكهانة الدينية وظيفة ينتفع بها صاحبها . اذ لم يكن فى مكة مسيحيون يرجعون فى أمرهم الى كاهن أو كنيسة ، وانما كان عكوف الرجل على دراسة الدين لطبيعة فيه توحى اليه الشك فى عبادة الأصنام وتجنح به الى البحث والمراجعة عسى أن يهتدى الى عقيدة أفضل من هذه العقيدة ، وينسب اليه شعر كان يقوله فى الجاهلية يشبه شعر أمية بن أبى الصلت ، ويروى كتاب السيرة انه استغرب علم السيدة خديجة باسم جبريل حين ذكرته له ، وقال لها : « انه السفير بين الله وبين أنبيائه ، وان الشيطان لا يجترىء أن يتمثل به ولا يتسمى باسمه .. » وقد جاء حديث ورقة مع السيدة خديجة على روايات مختلفة ، لا يعنينا أن نستقصيها . لأن المهم فى الأمر هو وجود هذا الشغف بمداينة الأديان بين بنى عم السيدة الأقربين ، فهذا وانفراد أيها بين زعماء مكة بالوقوف لعاهل اليمن والمخاطرة بنفسه غيرة منه على مناسك الكعبة كافيان للإبانة عن طبيعة التدين التى ورثتها الأسرة ، من كان منهم على الجاهلية ، ومن تحول عنها الى النصرانية

ويؤخذ من أخبار السيدة خديجة الأخرى انها كانت على علم بكل من يطالع كتب المسيحية والاسرائيلية ، لأنها لم تكتف بسؤال ابن عمها بل

سألت غيره ممن كانت لهم شهرة بالاطلاع على التوراة وكتب الأديان ..
وقد روى عنها كلام قالته للنبي عليه السلام حين فاجأه الوحي فعاد
اليها ، وقال لها : « لقد خشيت على نفسي ! » فكان كلامها الذى أرادت
أن تسرئ به عنه وثبتت به جنانه آية على العلم بلباب الدين علما يستكثر
على الناشئين فى أديان الجاهلية ، فان الدين لا يعدو أن يكون عندهم
كهانة وسحرا ، ولكنها أدركت من حقيقة الدين مالا يدركه عامة قومها ،
فعلمت انه فضيلة وان النبي الجدير أن يندب له هو الرجل الذى اتسم
بالفضيلة ، وقالت للنبي وقد آمنت انه وحى وليس بعارض من عوارض
الجنة : « كلا ! والله ما يخزيك الله أبدا . انك لتصل الرحم ، وتحمل
الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الحق ،
وتصدق الحديث ، وتؤدى الأمانة »

علامات للنبوّة لا يدركها كل من يسمع بالدين ، ولولا انها عرفت من
أبناء عمومتهما من كان يفهم النبوة هذا الفهم لما كانت هذه علاماتهما
لتصديق الدعوة وصرف الوجع والخشية عن نفس زوجها الكريم
وهى على هذا طبيعة مميزة ، وليست طبيعة منساقة الى السماع
والتقليد ، فمما قل عنها انها طلبت الى النبي عليه السلام أن يخبرها اذا
جاءه جبريل ، فلما أخبرها قالت له : « قم فاجلس على فخذي اليسرى »
ففعل ، فقالت : « هل تراه ؟ » قال : « نعم » . قالت : « فتحول الى
فخذي اليمنى » وسألته : « هل تراه ؟ » قال : « نعم » . فألقت خمارها
وسألته ، فقال : « الآن لا أراه .. » قالت : « يا ابن العم اثبت وأبشر ،
فانه ملك وما هو بشيطان »

وهذا الاختبار غاية ما كان ينتظر من سيدة فى عصرها أن تمتحن به
حقيقة الوحي . ولا غرابة فيه عند المسلم وعند غير المسلم فى العصر
الحاضر ، فان البديهة لا تشتغل بالوحي الدينى والنظر الى جسد الأثنى
فى وقت واحد ، ولا سيما بعد الحوار واعادة السؤال مرة بعد مرة ، فلا

موجب اذ لشك المتشككين من المتحذلقين في صحة هذه الأحاديث
وقد رزقت هذه السيدة البارة صباحة الوجه مع ما رزقته من الخلق
الجميل والحسب الأثيل والمال الجزيل ، وصدق من قال ان السعادة
لا تتم ، فان هذه السيدة التي تم لها غاية ما تتمناه المرأة لم تتم لها نعمة
السعادة في حياتها الزوجية ، فانها تزوجت في صباها برجل من هامات
مكة هو أبو هالة بن زرارة فمات ولها منه ولد صغير سُمي باسم هند
(لعله دفعا لأذى الحسد) وهو الذي تربى مع السيدة فاطمة وقتل في
جيش الامام في وقعة الجمل على أرجح الأقوال ، ويؤثر عنه أوفى وصف
للنبي رواه سبطه الحسن عليهما صلوات الله ..

ثم بنى بها عتيق بن عائذ بن عبد الله المخزومي ، واختلفوا في أى
زوجيها كان الأول ولكنه على كل حال زواج لم يكتب له الدوام ، وقد
أعرضت عن الزواج بعد هذين الزوجين حتى عرض لها في حياتها الرجل
الذي أصبحت بفضلها علما من أعلام النساء في التاريخ ، ولا شيء أدل على
رجاحة لبثها من أاناتها في اختيار زوجها ، مع تهافت الخطاب عليها ورجوع
الأمر اليها فيما تختار

أما كيف اتصل النبي عليه السلام بالعمل في تجارتها فتكاد الأقوال
تتفق على انه كان بمشورة من عمه أبي طالب ، وان أبا طالب قال له في
سنة من السنين : « يا ابن أخى . أنا رجل لا مال لى وقد اشتد علينا
الزمان ، وهذه غير قومك قد حضر خروجها الى الشام ، وخديجة بنت
خويلد تبعت رجالا من قومك في غيرها فلو جئتها فعرضت نفسك عليها
لأسرعت اليك » . وقد تردد النبي في مفاتحتها بهذا الطلب فذهب اليها
أبو طالب ، فأجابته على رضى وكرامة ، وقالت له : « لو سألت ذلك لبعيد
بغيبض لاجبنائك ، فكيف وقد سألت لقريب حبيب ؟ »

وقد سافر النبي الى الشام وباع واشترى وربح لها أضعاف ما كافت
تربح في كل عام ، وأعجبها منه انه حين عاد من السفر وكل الى غلامها
ميمرة الذى كان بصحبته أن يسبقه ليشرها بعودة القافلة ووفرة كسبها ،

فأكبرت منه مروءته وأماتته وحذقه ، وأجبتة وودت لو يخطبها مع الخطاب ، وعرضت له بذلك في حديث أقرب الى التلميح منه الى التصريح ..

وأحجم النبي حياء وأحجبت هي عن التصريح ، ثم أوعزت الى صديقة لها - هي نفيسة بنت منية - أن تشجعه على الخطبة ، فسألته نفيسة ذات يوم : « ما يمنحك أن تزوج ؟ » قال : « قلّة المال » . قالت : « فان كفيت ودعيت الى المال والجمال والكفاءة ؟ » قال : « ومن تكون ؟ » قالت : « خديجة ! » قال : « فاذهبي فاخطبيها »

وروى الزهري صاحب أقدم السير ان « رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لشريكه الذي كان يتجر معه في مال خديجة : هلم فلنتحدث عند خديجة ، وكانت تكرمهما وتحفهما ، فلما قاما من عندها جاءت امرأة مستثناة - هي الكاهنة - فقالت له : جئت خاطبا يا محمد ؟ فقال : كلا . فقالت : ولم ؟ فوالله ما في فريش امرأة - وان كانت خديجة - الا تراك كفوًا لها ... »

وأشبه الأشياء بأن يكون - بين الروايات المتعددة - ان النبي عليه السلام كاشف رئيس أسرته أن يتقدم لخطبتها ففعل وخطبها خطبة عزيز قوم لعزيزة قوم ، وقال وهو يفاتح عمها في الأمر : « .. ان محمدا ممن لا يوازن به فتى من قريش الا رجح به شرفا ونبلا وفضلا وعقلا ، وان كان في المال قل فانما المال ظل زائل وعارية مسترجعة ، وله في خديجة بنت خويلد رغبة ولها فيه مثل ذلك » فقال عمها عمرو ، أو ابن عمها ورقة ابن نوفل في رواية أخرى : « هو الفحل الذي لا يقدر أنفه » . وكانت أول امرأة تزوجها رسول الله ، ولم يتزوج عليها في حياتها الى أن قارب الخمسين ..

ومن خديجة ولد للنبي جميع أبنائه ما عدا ابراهيم ابنه من مارية القبطية ، وهم : القاسم ، والطاهر ، والطيب ، وزينب ، ورقية ، وأم كلثوم ، وفاطمة ، أصغرهم باتفاق معظم الأقوال

وكان النبي عليه السلام عند زواجه بالسيدة خديجة في نحو الخامسة والعشرين من عمره ، أما السيدة خديجة فمن كتاب السيرة من يقول انها كانت في الأربعين أو في الخامسة والأربعين ، ومنهم ابن عباس يقول : « انها كانت في الثامنة والعشرين ولم تتجاوزها » . وأخرى بهذه الرواية أن تكون أقرب الروايات الى الصحة . لأن ابن عباس كان أولى الناس أن يعلم حقيقة عمرها ، ولأن المرأة في بلاد كجزيرة العرب يبكر فيها النمو ويبكر فيها الكبر لا تتصدى للزواج بعد الأربعين ، ولا يعهد في الأغلب الأعم أن تلد بعدها سبعة أولاد ، عدا من جاء في بعض الروايات انهم ولدوا مع من ذكرنا أسماءهم ..

وقد يرجح تقدير ابن عباس غير هذا ان مثل خديجة تتزوج في نحو الخامسة عشرة أو قبلها ، لجمالها ومالها وعراقة بيتها وطأئنة أهلها ، فلا تتجاوز الخامسة والعشرين بعد زواجين لم يكتب لهما طول الأمد ، وان كنا لا نعرف على التحقيق كم من السنين دام زواجهما من أبي هالة ومن عتيق بن عائذ ، فمن الكلام عن ذريتهما منهما يبدو ان أيامهما معهما لم تزد على بضعة أعوام ..

« عسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم .. »

وأما ما ألف مصداق على هذه الآية في سيرة الرسول العظيم الذي تنزلت عليه تلك الحكمة الالهية

لقد تأخرت به قلة المال فلم يتزوج قبل العشرين ، خلافا لما جرى عليه العرف بين علية القوم ، وهو من تلك العلية في الذؤابة العليا ولقد عزت الهناء الزوجية على السيدة الغنية الوضيئة الذكية ، فتأيمت في نحو الثلاثين

ولو كثر مال محمد لعله كان يبنى قبل العشرين بكرامة معشر تصغره يبضع سنين ، وكان هذا هو الحظ السعيد في عرف كل انسان عاقل رشيد ..

ولو تيسرت الهناء الزوجية لخديجة لعلها كانت في غنى عن يتجر

لها ويؤمن على قوافلها بين الحجاز والشام ، ولكان لها من مالها ومال زوجها عون في الرحلة والمقام ، وكان هذا هو الحظ السعيد في عرف كل انسان عاقل رشيد ..

أيضا كان خيرا ؟ ..

هذا الذي كان كما كان ، أو ذاك الذي كان يحسبه كل عاقل رشيد صفوة الحظ الحسن الرشيد ؟ !

لم تمض سنوات على هذه الآصرة القدسية التي جمعت بين الزوجين الكريمين حتى طارأ طارئ لم يدخل لهما في حساب واستجاش الغيب نفس رسوله فتحتفت لأداء الأمانة الجلى التي جاشت بها جوانح الدنيا مئات السنين ..

فلم يجد محمد الى جانبه فتاة غريرة تفزع ولا تدرى ما تصنع ، بل وجد الى جانبه قلبا كريما وروحا عظيما وسكنا تهذا عنده جائشة ضميره وتطمئن اليه خشية فؤاده ، ولم يكن قصارى الأمان عند حليلته التي سكن اليها انها حنكة السن وحنان الأمومة ، ولكنه أمان الذي يعرف من نشأته ونشأة آله ما الرسالة وما أمانة الحق والفضيلة ، وما عاقبة الصبر على العرواء التي تندك لها عزائم وتطيش لها أحلام ، ولا يتلقاها كما يتلقى البشارة المفرحة الا من هو كفو لها من بنى آدم وحواء

وكل ما علمناه من سيرة خديجة عليها الرضوان خليق على قلته أن يجعلها بحق سيدة نساء قريش ، ولكن هذا القليل الذي علمناه لو ذهب كله ولم يبق منه الا أيام حضاتها لبشائر النبوة في طلعتها - لضمن لها أن تبوأ مقام السيادة بين نساء العالمين ..

وقد بقي محمد يذكر لها تلك الأيام الى مختتم أيامه ، وظل يتفقدتها ويتفقد مواطن ذكرها أعواما بعد أعوام ، لقد كان فيها الشغل الشاغل عن أطيب الأيام وأصعب الأيام ، وان وفاء كهذا لهو وحده كفاية المستقصى في التعريف بحقها من زوجة بارة وأم رؤوم ، فما من شهادة لانسانة هي أصدق من دوام الوفاء لها في قلب انسان عظيم

نشأتها

إذا وصفت نشأة الزهراء بكلمة واحدة تفنى عن كلمات فالجد هو تلك الكلمة الواحدة ..

درجت في دار أبويها ، والدار يومئذ مقبلة على أمر جل لم تتجمع بوادره في غير تلك الدار ، وغار حراء

أمر جل لا تقف جلالته عند جدران الدار ، ولا عند أبواب المدينة التي اشتملت عليها ، ولا عند حدود الجزيرة العربية بعمارها وقفارها ، بل هو الأمر الجلل الذي يطبق العالم بأسره عصورا وراء عصور ، لأنه هو أمر الدعوة الإسلامية التي كانت يومئذ تختج في صدر واحد ، هو صدر أبي الزهراء عليه السلام

ما هذه الصلوات والتسبيحات ؟ ما هذه الهيمنة بين الأبوين ؟ ما هذا الوجل وما هذا القنوت ؟

أكبر الظن أن الطفلة الصغيرة لم تستغرب شيئا من هذا لأن الطفل لا يستغرب الأمر إلا إذا رأى ما يخالفه ، وهي لم تفتح عينها على غير هذه البوادر والمقدمات

أكبر الظن أن الزهراء الصغيرة لم تستغرب شيئا مما كان يحيط بها وهي تدرج من مهدها ، ولكن الطفل الذي يحسب هذه المشاهد من مألوفاته ينفرد بمألوفات لا تتكرر من حوله ، ويتخذ له قياسا للألفة والغربة منفردا بين أقيسة النفوس

وأكثر الظن أنه ينشأ منظويا على نفسه ، مستخفا بما يخف له الناس من حوله ، متطلبا من عادات النفوس وطبائعها غير ما يتطلبون .. ولقد أوشكت الزهراء أن تنشأ نشأة الطفل الوحيد في دار أبويها ،

لأنها لم تجد معها غير أخت واحدة ليست من سنّها ، وغير أخيها هند ،
وهو أكبر منها ومن أختها ، ولم يكن من عادة الطفولة العربية أن يلعب
البنات لعب الصبيان

وأوشكت عزلة الطفل الوحيد أن تكبر معها ، لأنها لم تكن تسمع عن
ذكريات أخوتها الكبار الا ما يحزن ويشغل : ماتوا صغاراً وخلفوا في
نفوس الأبوين لوعة كامنة وصبرا مريراً ، أو تزوج من الأخوات الأحياء
من تزوج وخطب من خطب ، ثم لم تلبث الخطبة أن ردت الى أختين ،
لأنهما خطبتا الى ولدى أبى لهب ، ثم أصبح أبو لهب عدواً للأبوين
يمقتهما ويمقتانه ، فانتهت خطبة الأختين الشقيقتين بهذا العداء

جداً من كل جانب تركن اليه ، وانطواء على النفس لا تستغربه
ولا تحب أن تبدله ، وملاذها في كل هذا حنان أبوين لا كالأباء : حنان
جاد رصين ، ونكاد نقول : بل حنان صابر حزين ، يشملها به الأب الذي
مات أبناءه ولا عزاء له من بعدهم غير عبء النبوة الذي تأهب له زمناً
وفض به زمناً ولا يزال يعاني من حمله ما تنوء به الجبال ، وتشملها
به الأم التي جاوزت الأربعين وبقيت لها في خدرها هذه البنية الدارجة
صغرى ذريتها ، والحنان على الصغرى من الذرية بعد فراق الذرية كلها
بالموت أو بالرحلة حنان لعمر الحق صابر حزين

ولقد نعمت الزهراء بهذا الحنان من قلبيز كبيرين : حنان أخرى به أن
يعلم الوقار ولا يعلم الخفة والمرح والانطلاق

وتعلمت الزهراء في دار أبويها ما لم تتعلمه طفلة غيرها في مكة : آيات
من القرآن وعادات يأبأها من حولهم العابدون وغير العابدین
ولكنها قد تعلمت كذلك كل ما يتعلمه غيرها من البنات في حاضرة
الجزيرة العربية ، فلا عجب أن نسمع عنها بعد ذلك انها كانت تضمد
جراح أبيها في غزوة أحد ، وانها كانت تقوم وحدها بصنيع بيتها ولا يعينها
عليه أحد من النساء في أكثر أيامها

ويبدو لنا انطواء الزهراء على نفسها من الأحاديث المروية عنها ، فلم

تعرض قط لشيء غير شأنها وشأن بيتها ، ولم تحدث قط في غير ما تسأل عنه أو يلجئها اليه حادث لا ملجأ منه ، فلا فضول هنالك في عمل ولا في مقال ..

وسواء صح ما جاء في الأنباء عن مجئتها للصدیق بالقرآن الكريم أو كان فيه مجال للمراجعة ، فالصحيح الذي لا مراجعة فيه انها سمعت القرآن الكريم من النبي وسمعت من علي ، وانها صلت به ووعت أحكام فرائضه ، وانها وعت كل ما وعته فتاة عربية أصيلة العرق والنسب ، وزادت عليه ما لا يعيه غيرها من الأصيلات المعربات

لقد نشأت نشأة جد واعتكاف : نشأة وقار واكتفاء ، وعلمت مع السنين انها سلية شرف لا منازع لها فيه من واحدة من بنات حواء فيمن تراه ، فوثقت بكفاية هذا الشرف الذي لا يداني ، وشبت بين انطوائها على نفسها واكتفائها بشرفها كأنها في عزلة بين أبناء آدم وحواء

سكنت هذه النفس القوية جثماناً يضيق بقوتها ، وقلما رزق الراحة من اجتمع له النفس القوية والجثمان الضعيف ، فانهما مزيج متعب للنفس والجسم معا ، لا قوام له بغير راحة واحدة : هي راحة الايمان ، وهذا هو التوفيق الأكبر في نشأة الزهراء ، فانها نشأت في مهد الايمان اذ هو ألزم ما يكون لها بين قوة نفسها ونحول جثمانها

زَوَاجُهَا

قال الزرقاني في شرح المواهب اللدنية : « أن عبد الله بن حسن دخل على هشام بن عبد الملك وعنده الكلبي فقال هشام لعبد الله : يا أبا محمد ! كم بلغت فاطمة من السن ؟ قال : ثلاثين سنة ، فقال الكلبي : خمساً وثلاثين . فقال هشام : اسمع ما يقول ، وقد عني بهذا الشأن . فقال : يا أمير المؤمنين : سلني عن أمي وسل الكلبي عن أمه »

وتوافق هذه الرواية روايات متعددة ، اتفقت على أن الزهراء ولدت في سنة بناء الكعبة قبل البعثة المحمدية بضع سنوات ، فأصح الأقوال بين الأخبار المتضاربة انها عليها السلام قد تزوجت وهي في نحو الثامنة عشرة ومن جملة الأخبار يتضح ان النبي عليه السلام كان يلقبها لعلى رضي الله عنه . فقد خطبها أبو بكر وعمر فردهما وقال لكل منهما : انتظر بها القضاء ، أو قال انها صغيرة كما جاء في سنن النسائي

وفي أسد الغابة انها لما خطبها أبو بكر وعمر وأبى رسول الله قال عمر : « أنت لها يا على ! » فقال على : « مالي من شيء الا درعي أرهنها » فزوجه رسول الله فاطمة ، فلما بلغ ذلك فاطمة بكّت ، ثم دخل عليها رسول الله فقال : « مالك تبكين يا فاطمة ! فوالله لقد أنكحتك أكثرهم علماً وأفضلهم حلماً وأولهم سلماً »

وفي رواية أن علياً لما سأله النبي : « هل عندك من شيء ؟ » قال : « كلا » . فقال له : « وأين درعك الحطمية ؟ » أي التي تحطم السيوف ، وكان النبي قد أهداه إياها ، فباعها وباع أشياء غيرها كانت عنده ، فاجتمع له منها أربعمائة درهم ..

جاء في أنساب الأشراف للبلاذري : « فباع بعيراً له ومتاعاً فبلغ من ذلك

أربعمائة وثمانين درهما ويقال أربعمائة درهم ، فأمره أن يجعل ثلثها في الطيب وثلثها في المتاع ففعل .. »

ثم استطرد صاحب الانساب الى رواية أخرى ، يرتفع سندها الى علي^ه نفسه قال : « سمعت عليا عليه السلام يقول : « أردت أن أخطب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ابنته فقلت : والله مالى شيء ، ثم ذكرت صلته وعائذته فخطبتها اليه » فقال : « وهل عندك من شيء ؟ » قلت : « لا » قال : « فأين درعك التى أعطيتك يوم كذا ؟ فقلت : هى عندى ! قال : فاعطها اياها »

وفى طبقات ابن سعد أن رسول الله قال لما خطب أبو بكر وعمر فاطمة : « هى لك يا على ! لست بدجال » يعنى لست بكذاب . وذلك أنه كان وعد عليا بها قبل أن يخطبها

ويروى عن النبى أنه قال لفاطمة : « ما أليت أن أزوجك خير أهلى » وجهزت وماكان لها من جهاز غير سرير مشروط ووسادة من آدم حشوها ليف ونورة من ادم (اناء يغسل فيه) وسقاء ومنخل ومنشفة وقدر ورحاءان وجريتان ..

وعن أنس بن مالك أن النبى قال له : انطلق وادع لى أبا بكر وعمر وعثمان وطلحة والزبير وبعدهم من الأنصار ، قال فانطلقت فدعوتهم ، فلما أخذوا مجالسهم قال صلى الله عليه وسلم : « الحمد لله المحمود بنعمته المنعبد بقدرته ، المطاع لسلطانه ، المهروب اليه من عذابه ، النافذ أمره فى أرضه وسمائه ، الذى خلق الخلق بقدرته ونيرهم بأحكامه وأعزهم بدينه وأكرمهم بنبيه محمد صلى الله عليه وسلم . ان الله عز وجل جعل المصاهرة نسبا لا حقا وأمرنا متقترضا وحكما عادلا وخيرا جامعا ، أوشج بها الأرحام وألزمها الأنام . فقال الله عز وجل : وهو الذى خلق من الماء بشرا فجعله نسبا وصهرا وكان ريك قديرا ، وأمر الله يجرى الى قضائه ، وقضاؤه يجرى الى قدره ، ولكل أجل كتاب ، يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب ، ثم ان الله تعالى أمرنى أن أزوج فاطمة من علي^ه وأشهدكم أنى

زوجة فاطمة من علي ، على أربعمائة مثقال فضة ان رضى بذلك على السنة القائمة والفرضة الواجبة ، فجمع الله شملهما وبارك لهما وأطاب نسلهما ، وجعل نسلهما مفاتيح الرحمة ومعادن الحكمة وأمن الأمة ، أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم »

قال أنس : « وكان علي عليه السلام غائبا في حاجة لرسول الله صلى الله عليه وسلم قد بعثه فيها.. ثم أمر لنا بطبق فيه تمر فوضع بين أيدينا ، فقال : اتهموا . فبينما نحن كذلك اذ أقبل على قتبسم اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : يا علي ! ان الله أمرني أن أزوجه فاطمة ، واني زوجتكها على أربعمائة مثقال فضة ، فقال علي : رضيت يا رسول الله ! ثم ان عليا خروا ساجدا شكرا لله ، فلما رفع رأسه قال الرسول صلى الله عليه وسلم : بارك الله لكما وعليكما وأسعد جدكما وأخرج منكما الكثير الطيب »

قال أنس : « والله لقد أخرج منهما الكثير الطيب »

ومن المرجح جدا أن الزهراء قد استشيرت في زواجها على عادة النبي عليه السلام في تزويج كل بنت من بناته كما جاء في مسند ابن حنبل ، فيقول لها : فلان يذكرك ، فان سككت أمضى الزواج ، وان تقرت الستر علم أنها تأباه ، وفي زواج الزهراء قال لها : يا فاطمة ! ان عليا يذكرك . فسككت ، وفي روايات أخرى أنه وجدها باكية ، فذاك حيث قال رسول الله : « مالك تبكين يا فاطمة ! فوالله لقد أنكحتك أكثرهم علما وأفضلهم حلما وأولهم سلما »

ولم يجمع كتاب السيرة على الوقت الذي تم فيه الزواج ، ولكنهم قالوا انه كان بعد الهجرة ، وبعد غزوة بدر .. وأرجح الأقوال كما قدمنا انها كانت في نحو الثامنة عشرة ، وزوجها أكبر منها بضع سنوات ..

توخينا في اقتباس هذه الأخبار أن نرجح منها الأوسط الأمثل بين أقوال الرواة والمحدثين ، فما من خبر من هذه الاخبار وصل إلينا في كتب السيرة على رواية واحدة ، وقد يبلغ الفرق في بعض المسائل التي تتعلق بالزمن

خمس سنوات أو أكثر ، ويبلغ الفرق في بعض المسائل التي تتعلق بالأقوال والأعمال أن تتناقض مناقضة القبول والاباء والرضى والانتكار ، فلا مناص من الأخذ بالأوسط الأمثل بين جميع هذه الأقوال

ونحن نعني بالأوسط الأمثل أن يكون الترجيح قائما على المقابلة والموازنة والرجوع الى حوادث الزمن وعادات أهله ، والى الأخرى أن يصدر ممن أسند اليهم القول أو ثسب اليهم العمل .. فان الأخبار اذا تساوت رجح بينها ما هو أشبه بالزمن وأهله وأصحاب السيرة فيه

فمن المعقول مثلا أن يؤثر النبي عليا بفاطمة وهما ربيبان في بيئة واحدة ، ومن المعقول أن يؤثر زواجهما من علي^ع على مشاركتها في بيت أبي بكر وعمر لزوجات الشيخين ، ومن المعقول أن يتردد على في خطبتها لفقره . ولا يخالف المعقول ولا المألوف أن يقدم بعد تردد ، لشعوره بأنه مخصوص بها وأنه ينبغي عليه أن يقطع الشك باليقين ويعمل من عنده ما لا بد له من عمله ، ولا يخالف المعقول ولا المألوف كذلك أن يتأخر الزواج الى ما بعد الهجرة ، لأن حياة المسلمين في مكة - قبل الهجرة الى المدينة - لم تكن حياة أمن ولا استقرار ، ولم يكن من النادر أن يهاجر المسلمون بزوجاتهم الى بلد بعيد كالحبشة كلما ملكوا وسائل الهجرة ، فمن كان متزوجا قبل اشتداد العنت على المسلمين فلا حيلة له في الزواج ، ومن لم يكن فليس أخلق به من ارجاء الزواج الى حين

ذلك كله هو المعقول المألوف ، وهو الأوسط الأمثل اذا تساوت الأخبار ووجبت الموازنة والترجيح

الا أن التاريخ يكتب للاعتبار ، ولا يقصد من الاعتبار به شيء أهم من تصحيح النظر الى الحوادث والناس ، واستخلاص الحقيقة عما يقع ولا يقع وعما يجوز ولا يجوز

وها هنا محل لمبرتين كأهم المبر في كتابة التاريخ : كتابته في الأزمنة الغابرة ، وكتابته في الزمن الحديث

فأهم المبر التي تستخلص من تواريخ عصر البعثة المحمدية أن يقتصد

ذوو الأحكام التاريخية في المسائل الكبرى فلا يرتبوا حكما قاطعا في مسألة كبيرة على أرقام السنين وألفاظ الروايات ، فما كان من الأخبار مجمعا عليه أو مقاربا للاجماع فهو جدير باتخاذ الأحكام الجازمة فيه ، وما كان ميزان الحكم فيه كلمة تقابلها كلمات ، أو فرض تقابله فروض ، أو رقم ويوم تقابله أرقام وأيام بل أعوام ، فليس من القصد أن يعطى فوق معياره من الجزم واليقين ، وبخاصة حين يبنى عليه اتهام أو قضاء لا يقوم في مسائل كل يوم بغير بينة تنفى كل شبهة وتبطل كل محال

أما العبرة في تاريخنا المصرى فمرجعها الى كتابة طائفة من المصريين يزعمون أنهم يطبقون علم العصر على تاريخنا القديم وأنهم يصححونه بهذا التطبيق ، وليس أعجز منهم عن تحقيق هذه الدعوى ، لأنهم أثبتوا فيما كتبوه أنهم يزنون بميزانين وينظرون بعينين ، ويختلفون أسباب التشويه والتحريف ..

أولئك هم طائفة المستشرقين الذين يجمعون بين الاستشراق والتبشير فمن هؤلاء من بطالغ في الكتب الدينية التي يصدقها فيقرأ فيها من أخبار الدعاة والأدعياء أمورا لا شك في أنها من العيوب فلا يحسبها عيوباً ، ولا يتأفف منها ، بل يعنت فكره ويعنتها تخريجا وتعويجا حتى يقبلها ، ويفرض قبولها على الناس ..

فاذا طالع كتبا عن أصحاب دين غير دينه لم يأخذ نفسه بمثل هذا التحسين والتزين ، بل أخذها على النقيض من ذلك بالمسخ والتشويه وتحويل المحاسن الى عيوب ، أو بالتنقيب في كل مكان عما يعاب ان لم يجد مايعيبه في ظاهر السطور والحروف

ومامن شيء يمسخ الدين ويمسخ العلم معا كما يمسخهما هذا الخلق الذميمة ، فان الدين لا يعلم الانسان شيئا ان لم يعلمه حب الصدق واجتناب التمحل والافتراء ، وان العلم شر من الجهل ان كان يسوم الانسان أن يغمض عينيه لكيلا يرى ويوصد أذنيه لكيلا يسمع ، فليس هذا جهلا يزول يكشف الحقيقة ، ولكنه مرض يتعمد حجب الحقيقة عن صاحبه وهي

مكتشفة لديه ، فهو شر من الجهل بلا مرء

وفى تاريخ الزهراء مثال للعبرة التى تستخلص من كتب هؤلاء «العلماء»
الذين هم شر من الجهلاء ، وأحدهم قد خصص كتابا لتاريخ الزهراء يحاول
فيه جهده أن « يطبق » ذلك العلم العصرى المقلوب ، فاذا هو منقلب
عليه ..

يؤلف رجل من رجال الدين المستشرقين الذين عاشوا زمنا فى الشرق —
كتابا عن الزهراء ليرضى فيه ذلك « العلم العصرى » المقلوب ، ويبحث عن
العيوب حيث لا عيوب ، فاذا العيب هو فى الاسفاف ، وكم فى الاسفاف من
عيوب ، بل من ذنوب

ومن تفاهاته وسفاسفه أنه يحاول جهده أن يثبت أن السيدة فاطمة
لم تتزوج قبل الثامنة عشرة لأنها كانت محرومة من الجمال ، ولم تصدق
أن أحدا يخطبها بعد تلك السن ، ثم يقول انها لما عرض عليها النبی الزواج
من على سكنت هنية ، ولكنها لم تسكت خجلا بل دهشة من أن يخطبها
خاطب ، ثم تكلمت فشكت ، لأنها تزوج من رجل فقير !..

لو كان السند الذى استند اليه هذا « العالم » واضحا ملزما لقلنا
انها أمانة العلم ، ولا حيلة للعالم فى الأمانة العلمية .. !
لكن السند كله قائم على أن السيدة فاطمة تزوجت فى الثامنة عشرة من
عمرها ، وتقابله اسناد أخرى تنقضه وتترأى للمؤلف حيثما نظر حوله
ولكنه لا يجب أن يراها ، لأنه يجب أن يرى مايعيب ولا يجب أن يرى
مالا عيب فيه ..

فالمشهور المتواتر أن السيدة فاطمة ولدت لأبوين جميلين ، وإن أخواتها
تزوجن من ذوى غنى وجاه ، كأبى العاص بن الربيع وعثمان بن عفان
وليس من المألوف أن يكون الأبوان والأخوات موصوفين بالجمال ؛ وأن
تحرمه إحدى البنات ..

والمشهور المتواتر أن السيدة فاطمة بلغت سن الزواج والدعوة المحمدية
فى ابانها ، والمسلمون بين مهاجر أو مقيم غير آمن ، والحال قد تبدلت بعد

الدعوة المحمدية فأصبحت خطبة المسلمات مقصورة على المسلمين ، وهؤلاء المسلمون قلة منهم المتزوج ومنهم من لا طاقة له بالزواج ، فلاحاجة بالمؤلف الى البحث الطويل ليهتدى الى السبب الذى يؤخر زواج بنت النبى الى الثامنة عشرة ، ولو كانت أجمل الجيالات ..

وفى وسعه كذلك أن يتصور أن النبى يخص بها ابن عمه ، وينتظر بها يوم البت حين تهدأ الحال ويستعد ابن عمه للزواج ويستقر على حال بينه وبين آله الذين لا يزالون على دين الجاهلية ، فلا هم فى ذلك الوقت ذووه ولا هم بعداء عنه ..

كل ذلك قريب كان فى وسع « العالم المحقق » أن يراه تحت عينيه ، قبل أن يذهب الى العلة التى اعتلها لتأخير الزواج ، فلا يرى له من علة غير فقدان الجمال .. ولكن الأسباب الواضحة القريبة لا يلتفت اليها لأنها لا تعيب ، والسبب الخفى البعيد تشوبه غضاضة ، فهو الجدير اذن بالالتفات وكأنما كان « العالم المحقق » فى حاجة الى جهالة فوق جهالته فهو يفهم من بكاء السيدة فاطمة انه شكاية من فقر على بن أبى طالب ، ويسند هذا الفهم الى رواية البلاذرى فى أنساب الاشراف ، بعد زعمه أن فاطمة أبلغت زواجها بعلى فسكتت من الدهشة لا من الخجل ، وانما دهشت لأنها لم تكذب تصدق أن أحدا يخطبها بعد أن قاربت العشرين

أفمن المؤلف أو من التطبيق العلمى أن تكون الفتاة يائسة من الزواج ، مدهوشة من خطبة الخطيب ، ثم تتعلل العلل وتفرض الشروط وتستعظم نفسها على بنى عمومها الفقراء ، وليست هى يومئذ من الأغنياء ؟

كلا ! ليس ذلك بالمؤلف ولا بالتطبيق العلمى ، ولكنه تمحل للظن فضيلته الكبرى أنه يشتمل على مساس بفاطمة وعلى ... فهو اذن أحق بالترجيح من كل تقدير مؤلف

والبلاذرى — بعد — لم يذكر شيئا من هذا وليس فى كلامه عن مناقب على أو فاطمة شيء من قبيل الجواب الذى ينسب الى الزهراء غير روايته للحديث بسنده وهو : « حدثنا عبد الله بن صالح عن شريك عن أبى اسحاق

عن حبشي بن جنادة قال : لما زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم فاطمة أرعدت فقال : اسكتي ! فقد زوجتك سيدا في الدنيا وانه في الآخرة لمن الصالحين » ..

وهذا ما وجدناه في النسخة المنقولة من مخطوطة الاستانة ، ومن الأجزاء المطبوعة في أوربة ، فتفسير « الرعدة » بذلك المعنى انما هو من ابداع المؤلف الحصيف ! ..

هذا مثال من تحقيق هؤلاء المحققين حين يكتبون عن تاريخ أعلام الشرق وحوادثه ، نمر به لعبثره النافعة في وزن التواريخ العصرية المزعومة ، ولا تنبه اليه لقول قائل ان السيدة فاطمة كانت محرومة من الجمال .. فانه لو صح لما كانت فيه مهانة على سيدة شرقتها أكرم الأبوات كما شرفها أكرم البنات ، ولكنتا تنبه اليه لأنه عبء المعتبرين فيما يصنعه العقل بنفسه حين يمسخه مرض الأهواء ، فيفتري على العلم والدين ما تأباه أمانة العلم ، ويعاقبه أدب الدين ..

ونعود الى قياس الأخبار بالموازنة أو بما هو مألوف ومعقول ، فنقول اننا بحثنا عن خبر من أخبار زواج البنات في آل محمد وآل علي ، فلم نجد في عصر النبوة غير خبر واحد من قبيل الخبر الذي قيل فيه أن السيدة فاطمة أشارت الى فقر علي حين بلغت خطبته لها ، وهو تزويج السيدة أم كلثوم ..

وبين الخبرين ، مع هذا ، بون بعيد ..

جاء في أسد الغابة عن حسن بن حسن بن علي بن أبي طالب أنه قال : « لما تأيمت أم كلثوم من عمر بن الخطاب دخل عليها حسن وحسين أخوها فقالا : « انك ممن قد عرفت سيدة نساء المسلمين وبنت سيدتهن ، وانك والله ان أمكنت عليا من رمتك لينكحك بعض أيتامه ، وان أردت أن تصيبي بنفسك مالا عظيما لتصيينه » ، فوالله ما قاما حتى طلع علي يتكىء على عصاه ، فجلس فحمد الله وأثنى عليه وذكر منزلتهم من رسول الله وقال : قد عرفتم منزلتكم عندي يا بني فاطمة وأثرتكم على سائر ولدي

لكانكم من رسول الله عز وجل ، فقالوا : صدقت رحمك الله ، فجزاك الله عنا خيرا . فقال : أى بنية ! ان الله عز وجل قد جعل أمرك بيدك ، فأنا أحب أن تجعله بيدي . فقالت : اى أبه ! انى امرأة أرغب فيما يرغب فيه النساء وأحب أن أصيب مما تصيب النساء من الدنيا ، وأنا أريد ان انظر فى أمر نفسى . فقال : لا والله يابنية ! ما هذا من رأيك . ماهو الا رأى هذين ! ثم قام فقال : والله لا أكلّم رجلا منهما أو تفعلين ، فأخذنا بشيابه فقالا : اجلس يا أبه ، فوالله ماعلى هجرتك من صبر . اجعلنى أمرك بيده . فقالت : قد فعلت ! قال : فانى قد زوجتك من عون بن جعفر ، وانه لعلام ، وبعث لها بأربعة آلاف درهم »

هذه المؤامرة المحببة بين أخوين وأختهما ليسعداها بزواج أرغد من الزواج الذى يختاره أبوهن - تنتهى بطاعة الحب للاب الذى لا يصبر على غضبه وتدل فى سرها وعلايتها على أجمل ما يكون بين الأخوة والآباء من عطف وتوقير.. وليس فيها من الشبه برواية البلاذرى غير اشفاق الفتاة من عيشة الضنك دون أن يكون هناك خطيب معروف تقابل خطبته بالاعتراض والمراجعة ، وشتان مقال أم كلثوم ومارواه الرواة عن أمها البتول

فاذا كان للخبر الذى جاء فى أنساب الاشراف أصل يعول عليه فأصله فيما هو مألوف ومعقول أن يكون النبی عليه السلام قد وجد الزهراء باكية وليس فى ذلك من غرابة ، لأننا لا نتخيل فتاة فى مثل موقفها لا ييكىها ما تثيره فى نفسها ذكرى أمها ووداع بيت أبيها ، وقد فارقتها أمها وهى صبية تدرك ما فقدته من عطفها وبرها والطافها لها فى رخائها وعسرها ، ثم يكون يوم الفصال فى غربة من الأم ومن البيت الذى لزمها فيه ومن البلد الذى يحتويه فان جهدنا أن نتخيل فتاة لا تبكى حين تحوم بنفسها تلك الذكريات وتقرب من اليوم الفاصل بين معيشتها فى كنف أبيها ومعيشتها فى غير كنفه ، فموضع الغرابة أن نتخيلها بعد الجهد غير باكية وغير آسفة ، ولا سيما من كانت مثل الزهراء مجبولة على مزاج حزين وأسى دفين على أمها العزيزة لم يفارقها مدى السنين ..

ومثل النبي الذي كانت كبرى فضائله انه انسان عظيم ، وانه كان أباً
مكسول الفؤاد ، لن يفوته ذلك الخاطر في ذلك اليوم ، ولن يسكت عنه
الا عامداً عالماً بما يلعبه في النفس من الحزن والشجن ، فمن اللطف بالفتاة
الحزينة أن يتحاشاه وأن يجعل عزاء لها ما قاله عليه السلام : « مالك
تبكين يا فاطمة ! فوالله لقد أنكحتك أكثرهم علماً وأفضلهم حِلماً وأولهم
سلماً » ..

ولم يمض غير قليل حتى تبين لنا سبب من الأسباب التي أطالت بقاء
فاطمة في بيت أبيها ، فانه عليه السلام كان يحنو عليها لضعفها وحزنها
ولا يصبر على فراقها ، فلما تحولت عن داره بعد زواجها لم تمض أيام
حتى ذهب اليها فقال لها : اني أريد أن أحولك إلى . فقالت : فكلّم
حارثة بن النعمان أن يتحول عني . قال رسول الله : قد تحول حارثة بن
النعمان عنا حتى استحييت منه ، فبلغ ذلك حارثة فتحول وجاء النبي
فقال : يا رسول الله ! انه بلغني انك تحول فاطمة اليك ، وهذه منازلتي ،
وهي أسقى بيوت بني النجار بك ، وانما أنا ومالي لله ولرسوله ، والله
يا رسول الله للمال الذي تأخذ مني أحب الي من الذي تدع . فقال رسول
الله : صدقت . بارك الله عليك ! فحولها رسول الله الى بيت حارثة

جاء في كتاب السهمودي عن أخبار دار المصطفى : « ان بيت فاطمة
رضي الله عنها في الزور الذي في القبر بينه وبين بيت النبي صلى الله عليه
وسلم خوخة ... وكانت فيه كوة الى بيت عائشة رضي الله عنها ، فكان
رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا قام اطلع من الكوة الى فاطمة فعلم
خبرهم ، وان فاطمة رضي الله عنها قالت لعلي ان ابني أمسيا عليّين فلو
نظرت لنا أدماً نستصبح به ! فخرج على الى السوق فاشتري لهم أدماً
وجاء به الى فاطمة ، فاستصحت ... فأبصرت عائشة المصباح عندهم في
جوف الليل - وذكر كلاماً وقع بينهما - فلما أصبحوا سألت فاطمة النبي
صلى الله عليه وسلم أن يسد الكوة فسدها »

الى أن قال ما خلاصته من جملة أسانيده : « انه صلى الله عليه وسلم

كان يأتي باب علي وفاطمة وحسن وحسين كل يوم عند صلاة الصبح حتى يأخذ بعضادتي الباب ويقول : السلام عليكم أهل البيت ، ويقول : الصلاة ! ثلاث مرات ، انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا ... وكان النبي صلى الله عليه وسلم اذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فصلى فيه ركعتين ، ثم يثنى بفاطمة ، ثم يأتي بيوت نسائه « وأسند يحيى عن محمد بن قيس قال : « كان النبي صلى الله عليه وسلم اذا قدم من سفر أتى فاطمة فدخل عليها وأطال عندها المكث ، فخرج مرة في سفر وصنعت فاطمة مسكتين من ورق (بكسر الراء) وقلادة وقرطين وسترت باب البيت لقدم أيها وزوجها ، فلما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل عليها ووقف أصحابه على الباب لا يدرون أبقيمون أم ينصرفون لطول مكثه عندها ، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد عرف الغضب في وجهه حتى جلس على المنبر ، ففطنت فاطمة انه فعل ذلك لما رأى من المسكتين والقلادة والستر .. فنزعت قرطيتها وقلادتها ومسكتيها ونزعت الستر وبعثت به الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقالت للرسول : قل له تقرأ عليك ابنتك السلام وتقول لك : اجعل هذا في سبيل الله . فلما أتاه قال : قد فعلت ، فداها أبوها ، ثلاث مرات ، ليست الدنيا من محمد ولا من آل محمد ، ولو كانت الدنيا تعدل عند الله من الخير جناح بعوضة ماسقى كافرا منها شربة ماء »

واتتظمت الحياة في السكن الجديد الذي أوى الى ظل النبي على مثال من حياة النبي في بيته : عيشة كفاف وخدمة يتعاون عليها رب البيت وربته ، اذ كان رزق علي من وظيفة الجندي ، ووظيفته من فيء الجهاد ، وقد كان قليلا في حياة النبي وهو مقصور على الجزيرة العربية ، فكان نصيب علي منه أقل من أن يتسع لأجرة الخدم ، وكلما رزق وليدا جاءته حصته على قدر ، شأنه كشأن كل أب من المسلمين

وما لبث البيت الصغير أن سعد بالذرية ، وقد رزق الأبوان الفقيران

نصيا صالحا من البنين والبنات : الحسن والحسين ومحسن ، وزينب
وأم كلثوم ..

وكان أسعد مايسعدان به عطف الأب الأكبر الذى كان يوالىهم به
جميعا ولا يصرفه عنه شغل من شواغله الجسام فى محتدم الدعوة
والجهاد ، وقد أوشكت كل كلمة قالها فى تدليل كل وليد أو الترحيب به
أن تصبح تاريخا محفوظا فى الصدور والأوراق

فلما ولد الحسن سماه والداه حربا فجاء رسول الله فقال : أرونى ابنى
ما سميتوه ؟ قالوا : حرب ! قال : بل هو حسن ، وهكذا عند مولد
الحسين ، وعند مولد المحسن ، وقد مات وهو صغير

وكان يدلل الطفل منهم ويستدرجه ، فربما شوهده وهو يعلو بقدمه
الصغيرة حتى يبلغ بها صدر النبى ، والنبى يرقصه ويستأنسه ويداعب
صغره وقصره بكلمات حفظها الأبوان ، ولم يلبث أن حفظها المشرقان ..
حَرْقَه (١) .. حَرْقَه .. ترقه .. ترق عين بقره

وربما شوهده النبى عليه السلام ساجدا وطفل من هؤلاء الاطفال راكب
على كتفيه ، فينأى فى صلاته ويطل السجدة لكيلا يزحزحه عن مركبه ،
وفى احدى هذه السجرات يقول عمر بن الخطاب للطفل السعيد : نعم
المطية مطيتك ! ..

بل ربما كان على المنبر ، فيقبل الحسن والحسين يمشيان ويتعثران ،
فيسبقه خاتنه اليهما وينزل من المنبر ليحملهما ، وهو يقول : « صدق
الله العظيم ! انما أموالكم وأولادكم فتنة ! »
وكان اذا سمع أحدهما يبكى نادى فاطمة وقال لها : « ما بكاء هذا
الطفل ؟ .. ألا تعلمين ان بكاءه يؤذنى ؟ » ..

وقد جعل من عادته أن يبيت عندهم حيناً بعد حين ، ويتولى خدمة
الأطفال بنفسه وأبواهم قاعدان . فعلى احدى هذه الليالى سمع الحسن
يستسقى فقام صلوات الله عليه الى قربة فجعل يمصرها فى القدح ، ثم

(١) الحرق : القصر

جمل يععبه ، فتناول الحسين فمنعه وبدأ بالحسن . قالت فاطمة : كأنه أحب اليك ؟ . قال : انما استسقى أولا !
وقد يلفهم جميعا في برد واحد فيقول لهم : « أنا وأنتم يوم القيامة في مكان واحد ! » ..
وكانت هذه الأبوة الكبيرة أعز عليهم جميعا من أبوة الأب الصغير ، فكانت فاطمة تقول اذا رقصت طفلها :
وابأبى شبه النبي لست شبيها بعلي
وكانوا يتغاïرون على هذا تغاير المحبين ، الذين يتنافسون على حب لا يمنع بعضهم بعضا أن يتنافسوا عليه

حياة سعيدة مع الشظف والفاقة : سعيدة بالعطف في قلوب كبار ، ما كان حطام الدنيا عندها ليساوى مثقال ذرة من هباء
ولم تخل هذه الحياة ، وما خلت حياة آدمى قط ، من ساعات خلاف وساعات شكاية ، فربما شكت فاطمة وربما شكّا على ، وربما أخذت فاطمة على قرينها بعض الشدة وما هي بشدة ، فما كان رجل مثل على لينف على بنت رسول الله وهو يعلم مكانها من قلب رسول الله . انما هو اعتزاز فاطمة بنفسها وابطاؤها أن تهمل حيث كانت ، وانما هو الحنان الذي تعودته من أبيها فلا تستريح الى مادونه ، وكل حنان بعد حنان ذلك القلب الكبير فكأنه قسوة أو قريب من القسوة عند من يتفقده فلا يجد نظيره في قلب انسان ..

وكان الأب الأكبر يتولى صلحهما في كل خلاف ، وربما ترك مجلسه بين الصحابة ليدخل الى الأخوين المتخاصمين فيرفع مابينهما من جفاء . والصحابة الذين يتبعون في وجه النبي كل خالجة من خوالج نفسه ، ويبيحون أنفسهم أن يسألوه لأنه لا يملك من ضميره ما يرضن به على المتعلم والمتبصر ، يجرون معه على عادتهم كلما دخل البيت مهموما وخرج منه منطلق الأسارير ، فيسألونه فيجيب : « ولم لا وقد أصلحت بين أحب

الناس الى ! » ..

ومرة من هذه المرات ، بلغ العتاب غاية ما يبلغه من خصومة بين زوجين «
ونمى الى فاطمة أن عليا يهم بالزواج من بنت هشام بن المغيرة ، فذهبت.
الى أبيها باكية تقول : « يزعمون أنك لاتغضب لبناتك ؟ »

كلمة تعلم وقعها في نفس أبيها الذي ما زعمت هي قط انه يرضى بما
يغضبها ، وقد عرف أبوها ما تعنى لأن بنى هشام بن المغيرة استأذنوه في
تزويج بنتهم من زوج فاطمة ، فصعد المنبر والغضب باد عليه ، وقال على
ملا من الحاضرين : « ألا ان بنى هشام بن المغيرة استأذنوني في أن
يتكحوا ابنتهم عليا ، ألا وانى لا آذن .. ثم لا آذن .. ثم لا آذن .. انما
فاطمة بضعة منى يربىنى ما رابها .. »

ولا نعلم نحن من شرح هذه الخطبة غير ما جاء في رواياتها المختلفة ،
ولكننا نعلم أن هذه الفتاة أسلمت وبايعت النبی وحفظت عنه ، فلعلها
قد خيف عليها الفتنة أن تتزوج بغير كفء من المسلمين ، وأهلها هم من
هم في المكانة والحسب لا يرضيهم من هو دون ابن أبى طالب من ذوى
قرباتها ، أو لعلها غصبة من غضبات علئى على أثقة من أثقات فاطمة ، أو
لعلها نازعة من نوازع النفس البشرية لم يكن في الدين ما يأبأها ، وان
أبأها العرف في حالة المودة والصفاء

ولا نحسب أن حياة الزهراء والامام تعرضت لخلاف غير الذى أشرنا
اليه ، فان كتب السيرة تستقصى كل جليل ودقيق من الحديث عن ذرية
النبي .. وهى وأبنائها كل ذرية النبي الذين عاشوا بعده ، ولم يطل بها
العمر فلحقت بالنبي صلوات الله عليه بعد وفاته ببضعة أشهر ، وكان على
قد عاهد نفسه لا يغضبها وقد غابت عنها عين أبيها ، فلم يغضبها بعد ذلك
حتى في أمر الخلافة ، وهو يومئذ أجل الأمور

بَلَاغُهَا

قال الامام أبو الفضل أحمد بن طاهر في كتاب بلاغات النساء :
« ... لما أجمع أبوبكر رضى الله عنه على منع فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم - فدك ، وبلغ ذلك فاطمة لاثت خمارها على رأسها وأقبلت في لمة من حفدتها تطلا ذبولها ماتخرم من مشية رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا حتى دخلت على أبي بكر وهو في حشد من المهاجرين والأنصار فنيطت دونها ملاءة ثم أنت أنه أجش القوم لها بالبكاء وارتج المجلس فأمهلت حتى سكن تشيع القوم وهدأت فورتهم فافتتحت الكلام بحمد الله والصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم فعاد القوم في بكائهم فلما أمسكوا عادت في كلامها فقالت :

« لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم فان تعزوه أبى دون نساءكم ، وأخا ابن عمى دون رجالكم فبلغ النذارة صادعا بالرسالة ، مائلا على مدرجة المشركين ، ضاربا لجنهم (١) آخذا بكظمهم ، يهشم الأصنام وينكث الهام ، حتى هزم الجمع وولوا الدبر وتفرشى الليل عن صبحه وأسفر الحق عن محضه ، ونطق زعيم الدين وخرست شقاشق الشياطين ، وكنتم على شفا حفرة من النار مذقة الشارب ونهزة الطامع وقبسة العجلان وموطىء الأقدام تشربون الطرق (٢) وتقتاتون القد أدلة خاشعين تخافون أن يتخطفكم الناس من حولكم فأنقذكُم الله برسوله صلى الله عليه وسلم بعد اللتيا والتى وبعد ما مثنى بيهم الرجال وذؤبان العرب ومردة أهل الكتاب كلما حشوا قارا للحرب أطفأها ونجم قرن للضلال

(١) النجى (يسكن الجيم وتحريكها الطريق الوعر) يمانية ١
(٢) الطريق : الله المطروق

وفجرت فاعرة من المشركين قذف بأخيه في لهواتها فلا ينكفى حتى يطلا صماخها باخمصه ويخمد لهيها بسيفه مكدودا في ذات الله قريبا من رسول الله ، سيدا في أولياء الله ، وأتم في بلهنية وادعون آمنون ، حتى اذا اختار الله لنبيه في دار أنبيائه ظهرت خلة النفاق وسمل جلباب الدين ونطق كاظم الغاوين ونبع خامل الآفلين وهدر فنيق (١) المبطلين فخطر في عرصاتكم وأطلع الشيطان رأسه من مغرزه ، صارحا بكم ، فوجدكم للدعائه مستجيبين وللغرة فيه ملاحظين فاستنهضكم فوجدكم خفافا وأحمشكم فألفاكم غضابا ، فوسستم غير أبلكم ، وأوردتموها غير شريككم ، هذا والعهد قريب والكلم رحيب والجرح لما يندمل ... »

الى أن قالت : « وأتم الآن تزعمون ان لا ارث لنا أفحكم الجاهلية تبغون ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون . أيها المسلمة المهاجرة أأبتر ارث أبى ؟ أفى الكتاب أن ترث أباك ولا أرث أبى ؟ لقد جئت شيئا فريفا ، فدوئكما مخطومة مرحولة تلقاك يوم حشرك ، فنعم الحكم الله والزعيم محمد والموعد القيامة وعند الساعة يخسر المبطلون ، ولكل نبأ مستقر وسوف تعلمون »

ثم انحرفت الى قبر النبي صلى الله عليه وسلم وهى تقول :

قد كان بمدك أنباء وهنبشة

لو كنت شاهدهم لم تكثر الخطب

انا فقدناك فقد الأرض وابلها

واختل قومك فاشهدهم ولا تغب »

هذه رواية لخطاب الزهراء ، وفى الكتاب نفسه رواية أخرى مخالفة فى لفظها ومعناها للرواية السابقة ، وقبل ايراد الروایتين قال أبو الفضل : « ذكرت لأبى الحسين زيد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب صلوات الله عليهم كلام فاطمة عليها السلام وقلت له ان هؤلاء - يشير

(١) الجمل القوى

الى قوم في زمانه يفضون من قدر آل البيت - يزعمون انه مصنوع وانه من كلام أبي العيناء فقال لى : رأيت متايخ آل أبى طالب يروونه عن آبائهم ويعلمونه أبناءهم وقد حدثني أبى عن جدى يبلغ به فاطمة عليها السلام على هذه الحكاية ورواه مشايخ الشيعة وتدارسوه بينهم قبل أن يولد جد أبى العيناء ، وقد حدث به الحسن بن علوان عن عطية العوفى انه سمع عبد الله بن الحسن يذكره عن أبيه . ثم قال أبو الحسن : وكيف يذكر هذا من كلام فاطمة فينكرونه وهم يروون من كلام عائشة عند موت أبيها ما هو أعجب من كلام فاطمة يتحققونه لولا عداوتهم لنا أهل البيت ؟ ..

ونسبت الى السيدة فاطمة آيات من الشعر قالتها بعد موت أبيها صلوات الله عليه ، وانها بعد دفنه أقبلت على أنس بن مالك فقالت : « يا أنس !.. كيف طابت أنفسكم أن تحثوا على رسول الله التراب ؟ » ثم بكّت ورثته قائلة :

اغبر آفاق السماء وكورت
شمس النهار وأظلم العصران
فالأرض من بعد النبی كتيبة
أسفا عليه كثيرة الرجفان
فليكه شرق البلاد وغربها
ولتبكه مضر وكل يمان
وليكه الطود المعظم جوده
والبيت ذو الأستار والأركان
يا خاتم الرسل المبارك ضوءه
صلى عليك منزل القرآن
ووقفت على قبر النبی وأخذت قبضة من تراب القبر فوضعتها على
عينها وبكت وأنشأت تقول :

ماذا على من شم تربة أحمد
أن لا يشم مدى الزمان غواليا
صبت على مصائب لو أنها
صبت على الأيام صرن لياليا
وقالت على قبره أيضا :
انا فقدناك فقد الأرض وابلها
وغاب مذ غبت عنا الوحى والكتب
فليت قبلك كان الموت صادفنا
لما نمت وحالت دونك الكتب
ومضى آتفا انها تمثلت بعد خطابها عن فذك بيتين من البحر والقافية
مع تكرار شطر منهما وهما :
قد كان بعدك أنباء وهنبشة
لو كنت شاهدهم لم تكثر الخطب
انا فقدناك فقد الأرض وابلها
واختل قومك فاشهدهم ولا تغب
وفيها كما يرى القارىء أقواء ، لأن الباء مضمومة فى روى البيت
الأول مكسورة فى روى البيت الثانى ، ولعل شطرا منهما حل محل شطر
فى نقل الرواية ..

نقول : ان الخلاف فى أمر هذه الخطب وهذا الشعر كثير ، ولا نجب
أن نخوض فيه لأنه خلاف على غير طائل ، وقد يحسمه أن نذكر فى هذا
الباب ما يقل فيه الخلاف بين جميع النقاد ، فانه أجدى من اللغو فى جدال
لا سند له ، يسلمه جميع المخالفين
فيقل الخلاف ولاشك حين نذكر ان ذلك الخطاب ليس مما يبدر من
اللسان عفوا خاطر ، وان قائله يعمده فى نفسه قبل القائه كما كان يصنع
الخطباء قبل استخدام الكتابة فى التحضير

ويقول الخلاف ولا شك حين نذكر أن سامع هذا الخطاب لا يستظهره عند سماعه ، فإن حفظه فأنما يحفظه منقولا أو مكتوبا بعد حفظه فإذا قل الخلاف في هذا فعلام اذن يكثر الخلاف ؟
أترأه يكثر حين يقال ان السيدة فاطمة تحسن هذه البلاغة وتستطيعها حين تحتفل لها وتعدّها في خلدها ؟
ان هذا النصيب من البلاغة اذا استكثر على السيدة فاطمة فما من أحد في عصرها لا يستكثر عليه
لقد نشأت وهى تسمع كلام أبيها أبلغ البلغاء ، وانتقلت الى بيت زوجها فعاشت سنين تسمع الكلام من امام متفق على بلاغته بين محبيه وشائيه ، وسمعت القرآن يرتل في الصلوات وفي سائر الأوقات ، وتحدث الناس في زمانها بمشابهتها لأبيها في مشيتها وحديثها وكلامها ، ومنهم من لا يحاكيها ولا ينطق في أمرها عن الهوى

جاء في الجزء الثالث من العقد الفريد عن « الرياشي عن عثمان بن عمرو عن اسرائيل بن ميسرة بن حبيب ، عن المنهال بن عمرو ، عن عائشة بنت طلحة ، عن عائشة أم المؤمنين انها قالت : « مارأيت أحدا من خلق الله أشبه حديثا وكلاما برسول الله صلى الله عليه وسلم من فاطمة ، وكانت اذا دخلت عليه أخذ بيدها فقبلها ورحب بها وأجلسها في مجلسه ، وكان اذا دخل عليها قامت اليه ورحبت به وأخذت بيده فقبلتها ، فدخلت عليه في مرضه الذى توفى فيه ، فأسر اليها فبكت ، ثم أسر اليها فضحكت ، فقلت : كنت أحسب لهذه المرأة فضلا على النساء فاذا هى واحدة منهن ، بينما هى تبكى اذا هى تضحك . فلما توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم سألتها فقالت : أسر الى فأخبرنى انه ميت فبكيت ، ثم أسر الى انى أول أهل بيته لحوقا به فضحكت »

وما قالته السيدة عائشة عن المشابهة بين الزهراء وأبيها قيل على السنة الثقات جميعا ، ويزاد عليه في حديث السيدة عائشة ان امرأة في فضلها

واعترازها بنفسها كانت ترى للزهراء فضلا على سائر النساء في حلمها
ورصاتها . فقيم يكثر الخلاف على مثل ذلك النصيب من البلاغة اذا
نسب اليها ؟ ولماذا تستعظم البلاغة على من نشأت سامعة لحديث محمد
مطبوعة على مشابته في حديثه ؟ ولماذا تستعظم على زوجة الامام الذي
كان المتفوقون على بلاغته أكثر من المتفقين على شجاعته ، وهي مضرب
الأمثال ؟ ولماذا تستعظم على سامعة القرآن الكريم بالليل والنهار مع
الذكاء واللب الراجح ؟

أما نسبة الشعر الى الزهراء فالخطب فيه أهون من ذلك فهو لا يسلكها
في الشاعرات ان ثبت ، ولا يضرها ان لم يثبت ، ونحن الى جانب الشك
الكبير فيه أقرب منا الى جانب القبول ، وليس بعيدا على غير الشاعر أو
الشاعرة أن يدير في فمه أبياتا يحكى بها حزنه وبثه ، فان النظم هنا أقرب
الى لغة العاطفة وعادة النحيب ، ولكن السيدة فاطمة كان لها من الاعتبار
بآيات من القرآن في مقام الموت غنى عن نظم الأبيات أو التمثل بها في
مقام العبرة والرثاء

في الحياة العامة

مضت السنون والسيدة فاطمة على دأبها الذي عهدناه عاكفة على
بنتها ، تزيدها عكوفاً عليه تربية الأبناء وخدمة البيت التي تنفرد بها
ولا تجد معينا عليها في كثير من الأيام غير زوجها
ثم توفي النبي صلوات الله عليه ، فأقامتها الحوادث فجأة على غير مرادها
في معترك الحياة العامة أو الحياة السياسية كما نسميها في أيامنا ، ولم يكن
لها منصرف عن ذلك المعترك في تلك الآونة ، لأن الخلاف فيها كان خلافاً
على ميراث أبيها ، ميراث الخلافة ، وميراث التركة القليلة التي أعقبها
ومسألة الخلافة في يوم وفاة النبي إحدى المسائل التي طال فيها الجدل
ولا يعسر على المنصفين أن يخرجوا من ذلك الجدل الطويل على رأي متفق
عليه ، وذلك أن الخطر الأكبر في ذلك اليوم إنما كان من فتنة السقيفة :
سقيفة بنى ساعدة ، حيث اجتمعت قبائل الخزرج بزعماء شيخها سعد بن
عبادة ، تطلب الإمارة ، ثم نصح لهم عويم بن ساعدة باختيار أبي بكر
للخلافة فأعرضوا عنه ونبذوه ، ثم خطر لذي رأي منهم أن يقسمها
شطرين : أمير من الأنصار وأمير من المهاجرين ، وما برح سعد بن عبادة
على جلالة شأنه في قومه نافراً من البيعة لأبي بكر بعد انعقادها وهو يأبى
إلا أن « يستبد الأنصار بهذا الأمر دون الناس فانه لهم دون الناس » ...
ثم أصر على إباءه حين انقضى جمع السقيفة وجاءه الرسل يدعونه للمبايعة
ماودة الغضب وقال لهم : « أما والله حتى أرميكم بما في كنانتي من نبل
أخضب سنان رعي » وناشدوه أن لا يشق عصا الجماعة فعاد يقول :
إني ضاربكم بسيفي ما ملكته يدي ، مقاتلكم بولدي وأهل بيتي ومن
أعني من قومي.. وأيم الله لو أن الجن اجتمعت لكم مع الانس ما بايعتكم

حتى أعرض على ربي »

ثم كان ثمة خطر لا يقل عن هذا الخطر في حاضره ولا في مغبته لو لم يعجل له العاملون بما يقطع دابره ، وهو خطر الفتنة التي راح أبو سفيان يحضاً نارها بين علي والعباس وبين بنى هاشم وسائر بطون قريش ، يعد قوماً بنصرة بنى أمية ونصرة قريش من ورائها ، ويوسوس لقوم آخرين بمثل هذا الوعد أو بمثل هذا الوعيد ، ربما كان من همه أن ينصف بنى هاشم ولا أن يؤيد الأنصار ، وانما أراد الوقيعه التي يخذلهم بها جميعا ويخرج منها بالسيادة الأولى التي كانت له على قريش في الجاهلية

وما من شك في خطر هذه الفتنة من أبي سفيان ولا في خطر تلك الفتنة من سقيفة بنى ساعدة ، فأنحسرت الفتنة بانعقاد البيعة لأبي بكر ، ولم يطلبها ، بل كان مشغلا بدفن الرسول ودعى الى السقيفة مرتين وهو لا يعلم فيم يدعى ويعتذر باشتغاله ويفضض لدعوته ، حتى هم عمر بمبايعة أبي عبيدة بن الجراح قبل أن ينشعب الجمع في السقيفة بين الخزرج والأوس والأنصار والمهاجرين ، وقبل أن تنجح المساعة من أبي سفيان في خفائها ، وقد كاد أن يعلنها

وكان علي في تلك الساعة المصيبة الى جوار الجثمان الطاهر المسجى في حجرته ، فدخل عليه أبو سفيان قائلاً : « يا أبا الحسن ! هذا محمد قد مضى الى ربه ، وهذا تراثه لم يخرج عنكم ، فابسط يدك أبايعك ! »

ويقول عنه العباس : « يا ابن أخي.. هذا شيخ قريش قد أقبل ، فامدد يدك أبايعك وبيايعك معي . فانا ان بايعناك لم يختلف عليك أحد من بنى عبد مناف ، واذا بايعك عبد مناف لم يختلف عليك قريشى ، واذا بايعتك قريش لم يختلف عليك بعدها أحد من العرب » ..

فيجيبه علي : « لا والله يا عم !.. انى لأكره أن أبايع من وراء رءاج » .. ولقد كان أحكم في جوابه هذا من شيخ الدهاة من بنى هاشم وشيخ

الدهاء من بنى أمية ، فما للخلافة معدى عنه ان كانت ولاية عهد يعلمها
جميع المسلمين ، وما للبيعة هناك جدوى ان تمت وراء رتاج وانشتت
بعدها عصا المبايعين والمعارضين

ولقد تمت البيعة على الوجه الذى عرفه التاريخ ، فان يكن هناك جدال
فلا جدال بين المنصفين في فضل الأئمة الذين أدركوا الفتنة قبل مسعاها
من السقيفة ومسعاها من دار أبى سفيان ، ولا جدال بين المنصفين فيما
ابتغوه من خير وحكمة ، فما ابتغى أبو بكر ولا عمر ولا أبو عبيدة نفعاً
لأنفسهم وما قصرُوا بعد يوم البيعة في نصرة دينهم ، وما كان في وسع
أحد أن يلى أجل من بلأئهم في دفع الغائلة عن الاسلام من فتنة الردة
ومن غارة الفرس والروم ، ولا أن يفتح للاسلام في العراق والشام وفارس
ومصر فتحة أعظم وأقرب مما فتحوه

وآمن على³ بحقه في الخلافة ، ولكنه أراد حقا يطلبه الناس ولايسبقهم
الى طلبه ، ولم تمنعه البيعة لغيره أن يعينه بالرأى والسيف ويصدق العون
لأبى بكر وعمر كأنه يعمل في عون رسول الله وهو بقيد الحياة

وقد اختلف الصديق والفاروق والامام يوما أو أياما بعد وفاة النبي
عليه السلام ، فمن شاء فليأخذ بحجة هذا ومن شاء فليأخذ بحجة ذاك ،
ولكن الحجة الناهضة لهم جميعا انهم لم يكذبوا لأنفسهم ولا لذيهم ،
ولم يقفوا دون الغاية في خدمة دينهم ، ولم يحى أحد منهم حياة تريب
في صدقه وصدق طويته وحسن بلأئه ، وما مات أحد منهم وله من الدنيا
نصيب يأسى عليه ..

وكانت السيدة فاطمة ترى حق على في الخلافة ، أو ترى أن قرابة
النبي أحق المسلمين بخلافته ، وأن بلاء على في الجهاد وعلمه المشهود به
يؤهلانه لمقام الخلافة ، وكان هذا رأى طائفة من الصحابة الصالحين
أدهشهم أن يجرى الأمر على غير هذا المجرى فاجتمعوا عندها واجتمعوا
في غير بيتها يتشاورون فيما بينهم ، أيابعون أم يتخلفون ، ولم نطلع على

رواية واحدة ذات سند يعول عليه ترمى أحدهم بشق عصا الجماعة أو بالسعى في تأليب الناس على تقض البيعة ، وبعد مساجلات بينهم وبين أبي بكر وعمر سمرت الفتنة عن مقصدها وتكشفت الدسيسة التي بيّتها أبو سفيان ، فقد عاد أبو سفيان يعرض مبايعته على عليّ ويتحفز للوقعة فصدّه عليّ وعرض له بذكر الغششة والمخادعين ، ثم قال له : « انك تريد أمرا لسنا من أصحابه » ، فلما يئس من هذا الباب طرق بابا آخر لعله يلج منه الى مأربه ، وذهب الى العباس يقول له : « امدد يدك يا أبا الفضل أبايعك فلا يختلف عليك القوم » ... ثم يقول : « انك والله لأحق بميراث ابن أخيك » فيرده العباس كما ردّه عليّ ، ويكاد الخلاف ينتهي عند هذا وينطوى بانطواء الكلام في مسألة الخلافة ، لولا مسألة « فذك » أو مسألة الميراث التي اختلف فيها سند أبي بكر وسند فاطمة مرة أخرى ، وأوشك أبو بكر أن يستقيل المسلمين من بيعتهم ، مخافة السخط من بنت رسول الله ..

وخلاصة الحديث في أمر « فذك » انها قرية كان النبي يقسم فيها بين آل بيته وفقراء المسلمين ، فلما قضى عليه السلام أرسلت فاطمة الى أبي بكر تسأله ميراثها فيها وفيما بقي من خمس خبير !.. فقال أبو بكر: « ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول : اننا معشر الأنبياء لا نورث . ما تركناه صدقة .. واني والله لا أغير شيئا من صدقة رسول الله عن حالها التي كان عليها » ويقال ان الزهراء احتجت عليه بقوله تعالى عن نبي من أنبيائه — زكريا — « يرثني ويرث من آل يعقوب » وقوله تعالى : « وورث سليمان داود » .. وان أبا بكر قال لها : « يا بنت رسول الله ! أنت عين الحجة ومنطق الرسالة لا يدلي بجوابك ولا أوقعك عن صوابك ، ولكن هذا أبو الحسن بيني وبينك هو الذي أخبرني بما تفقدت ، وأنبأني بما أخذت وتركت »

وجاء في شرح ابن أبي الحديد على نهج البلاغة « ان أبا بكر قال :

يا ابنة رسول الله ! والله ما ورث أبوك ديناراً ولا درهما وانه قال : ان الأنبياء لا يورثون . فقالت : ان فذك وهبها لى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : فمن يشهد بذلك ؟ فجاء على بن أبى طالب فشهد وجاءت أم أيمن فشهدت أيضا ، فجاء عمر بن الخطاب وعبد الرحمن بن عوف فشهدا ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقسمها . فقال أبو بكر : صدقت يا ابنة رسول الله ، وصدق على ، وصدقت أم أيمن ، وصدق عمر ، وصدق عبد الرحمن بن عوف ، وذلك ان مالك لأبيك ، كان رسول الله يأخذ من فذك قوتكم ويقسم الباقي ويحمل منه فى سبيل الله ، فما تصنعين بها ؟ قالت : أصنع بها كما يصنع بها أبى ! قال : فلك على الله أن أصنع كما يصنع فيها أبوك ، قالت : الله لتفعلن ؟ قال : الله لأفعلن . قالت : اللهم اشهد .. وكان أبو بكر يأخذ غلتها فيدفع اليهم منها ما يكفيهم ويقسم الباقي ، وكان عمر كذلك ، ثم كان عثمان كذلك ، ثم كان على كذلك »

وفى خلال الخلاف على هذه القضية قال عمر لأبى بكر : « انطلق بنا الى فاطمة فانا قد أغضبناها » . فانطلقا فاستأذنا عليها فلم تأذن لهما ، فأتيا عليا فكلماه ، فأدخلهما . فلما قعدا عندها حولت وجهها الى الحائط فسلما عليها فلم ترد عليهما السلام ، فتكلم أبو بكر فقال : « يا حبيبة رسول الله ، والله ان قرابة رسول الله أحب الى من قرابتي ، وانك لأحب الى من عائشة ابنتى ، ولوددت يوم مات أبوك انى مت ولا أبقى بعده ، أفتراى أعرفك وأعرف فضلك وشرفك وأمنحك حقك وميراثك من رسول الله ؟ الا انى سمعت أباك رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : لانورث ما تركنا فهو صدقة » . فقالت : « أرايتكما ان حدثتكما حديثا عن رسول الله تعرفانه وتفعلان به ؟ » قالا : « نعم » . فقالت : « نشدتكما الله ألم تسمعا رسول الله يقول : رضاء فاطمة من رضائى وسخطها من سخطى ؟ » قالا : « نعم سمعناه من رسول الله » . قالت : « فانى أشهد الله وملائكته انكما أسخطتماني وما أرضيتاني ، ولئن لقيت النبی لأشكونكما اليه » .

فقال أبو بكر : « أنا عائد بالله تعالى من سخطه وسخطك يا فاطمة » ، ثم اتحب يبكى حتى كادت نفسه تزهق ... ثم خرج فاجتمع اليه الناس فقال لهم : « يبيت كل رجل منكم معانقا حليلته مسرورا بأهله وتركتموني وما أنا فيه ؟ لا حاجة لى فى بيعتكم . أقبلونى بيعتى »

والحديث فى مسألة فذك هو كذلك من الأحاديث التى لا تنتهى الى مقطع للقول متفق عليه . غير أن الصدق فيه لا وراء ان الزهراء أجل من أن تطلب ما ليس لها بحق ، وإن الصديق أجل من أن يسلبها حقها الذى تقوم البينة عليه ، ومن أسخف ما قيل انه انما منعها فذك مخافة أن ينفق على من غلتها على الدعوة اليه ، فقد ولى الخلافة أبو بكر وعمر وعثمان وعلى ولم يسمع أن أحدا بايعهم لمال أخذه منهم ، ولم يرد ذكر شىء من هذا فى اشاعة ولا فى خبر يقين ، وما نعلم من تركية لذمة الحاكم فى عهد الخليفة الأول أوضح بينة من حكمه فى مسألة فذك ، فقد كان يكسب برضى فاطمة ويرضى الصحابة برضاها ، وما أخذ من فذك شيئا لنفسه فيما ادعاه عليه مدع ، وانما هو الحرج فى ذمة الحكم بلغ أقصاه بهذه القضية بين هؤلاء الخصوم الصادقين المصدقين ، رضوان الله عليهم أجمعين

ولعلنا نجمل ما قر فى أذهان المسلمين الثقات من أمر فذك بكلمة قالها عدل من أعظم العدول بعد ثمانين سنة أو نحوها ، بعيدا من الخصومة ، بعيدا من زمانها ، بعيدا من الشبهة فيها ، لأنه قال كلمته وفذك فى يديه ينزل عنها باختياره ، لا يدعوه الى ذلك داع غير وحى ضميره

ذلك هو عمر بن عبد العزيز القائل فى مستهل عهده بالخلافة : « ان فذك كانت مما أفاء الله على رسوله ولم يوجف المسلمون عليه بخيل ولا ركاب ، فسألت فاطمة اياها فقال : ما كان لك أن تسألينى وما كان لى أن أعطيك ، فكان يضع ما يأتية منها فى أبناء السبيل ، ثم ولى أبو بكر وعمر وعثمان وعلى فوضعوا ذلك بحيث وضعه رسول الله ، ثم ولى معاوية فأقطعها

مروان بن الحكم ، فوهبها مروان لأبى ولعبد الملك ، فصارت لى وللولىد
وسليمان ، فلما ولى الوليد سأله حصته منها فوهبها لى ، وسألت سليمان
حصته منها فوهبها لى ، فاستجمعتهما ، وما كان لى من مال أحب الى منها ،
فاشهدوا انى قد رددتها الى ما كانت عليه »

فى هاتين المسألتين نرى السيدة فاطمة على غير مألوفها من العكوف على
شؤون بنيتها والابتعاد من الحياة العامة ، لأن كلتا المسألتين تدور حول
حقها ووشيجة قرباها ، وهما مسألة الخلافة بعد النبى ومسألة الميراث من
فيه ، واحداهما مما نسميه فى لغة عصرنا بالسياسة العليا ، والأخرى مما
نسميه بسياسة الحكومة المالية أو الاقتصادية ، ولكل منهما جوانب
متفرعة يعالجها مؤرخ الحوادث والسياسات من نحوها . أما فى الدراسات
النفسية فالمهم فيهما وفى غيرهما هو ما تترجمان عنه من خلائق صاحبة
السيرة ، وما تترجمان عنه حين نوجزه هو قوة إيمان بحقها تثبت عليه
و « شخصية » مستقلة لا يهمل لها حساب

وفاتها

قلنا في « عبقرية محمد » :

« حفظ النوع سر من أسرار الحياة الكبرى التي دقت عن الفهم وحارت في تحليلها عقول الأساطين من أهل العلم والحكمة ، وهو لا ريب يجري على قانون مطرد في جميع طبقات الأحياء ، وإن كنا لا نعلم كنهه ولا نسبر عمقه ولا نزيد على استقصاء بعض الملاحظات التي تقارب الحقيقة ، أو هي أقرب ما نستطيع الوصول إليه

» وأهم هذه الملاحظات التقريبية انه يجري على سنة المكافأة والتعويض في معظم حالاته ، فيقابل النقص في جانب بالزيادة في جانب آخر ، ويقابل القصور في مزية من المزايا بالاتقان في مزية أخرى ..

« فالأحياء السفلى عرضة للعطب الكثير في طور الولادة والحضانة ، فيقابل هذا ان الأحياء السفلى ترسل ذرياتها بالآلوف وألوف الألوف ، فيبقى منها القليل الكافي لدوام النوع بعد فناء الكثير

« والأحياء العليا يقل عدد المولود منها في البطن الواحد ، فيقابل هذا أن تطول حضانتها والعناية بها ، وتجد من وسائل الصيانة ما يعوض الكثرة في الأحياء السفلى

« ويغلب أن يزيد النسل حين تكون زيادة النسل هي الوسيلة الوحيدة التي يستطيعها الفرد لخدمة نوعه وضمان دوامه ، فإذا تيسرت للفرد وسائل مختلفة لخدمة نوعه فقد يجور ذلك على نسله وينتقص من قسمته في أبنائه ، كأنما خدمة النوع ضريبة مفروضة على كل فرد في صورة من الصور ، فإذا أداها في صورة أعفى منها في الصور الأخرى ، أو كأنما

هى مواهب وأرزاق لا يستوفىها الفرد الواحد الا بثمرن غال يحسب عليه ،
ويؤدى حسابه للنوع على نحو من الانحاء
« والانسان هو أقدر المخلوقات الحية على خدمة نوعه بوسائل كثيرة
لا تنحصر فى تجديد النسل وزيادة عدده

» فهل يجوز لنا أن نقول ان العظماء الذين حرموا النسل قد أدوا
ضريتهم باصلاح شؤون الناس فلم يبق من اللازم امفروض عليهم أن
يؤدوا هذه الضريبة من طريق الذرية ؟

» ان قلنا ذلك فانما نقوله على سبيل الملاحظة التقريبية التى أشرنا
اليها ، ولا نبلغ بتلك الملاحظة فوق مبلغها من اليقين الذى تستحقه ، فغاية
مبلغها عندنا انها تستوقف النظر للتأمل والمراجعة ولا تفضى بنا الى الازم
أو الى التغليب ..

» فبعض العظماء من أكبر خدام النوع لم يتزوجوا ، وفيهم أنبياء
معظمون لا شك فى سيرتهم من هذه الناحية ، كعيسى عليه السلام
» وبعض العظماء الذين تزوجوا لم يرزقوا الذرية ، أو رزقوا ذرية كلها
أناث ، أو رزقوا ذرية من الأناث والذكور ولم يعيشوا ، أو عاشوا ولم
يعمروا ولا كانوا على حالة مستحبة من الصحة والنجابة ..

» وتواريخ العظماء فى جميع نواحي العظمة ، وفى جميع الأمم ، وفى
جميع العصور ، حافلة بالشواهد التى تغرز تلك الملاحظة وتجعلها خليقة
بالتأمل والمراجعة ، يدخل فيهم القديسون كما يدخل فيهم الحكماء ،
ويدخل فيهم العلماء كما يدخل فيهم رجال الفنون والمخترعون ويدخل
فيهم القادة العسكريون .. ولا يصعب على أحد أن يدير بصره الى فترة
من الزمن فى بلد قريب يعرفه حق المعرفة ليشاهد مصداق ذلك فى نفر من
عظمائه ومشهوريه ، وحسبنا فى مصر أسماء جمال الدين الأفغانى ومحمد
عبدو وسعد زغلول وعبد الله نديم ومصطفى كامل ومصطفى فهمى ومحمود
سامى البارودى وحافظ ابراهيم

« فإذا جاز لنا أن نقف عند الملاحظة وأن تأمل مغزاها ، وجاز لنا أن نفهم ان اصلاح شئون النوع الانسانى ضريبة تغنى عن ضريبة الذرية فى بعض الأحوال ، فأين ترانا نجد تلك الضريبة فى أرفع حالة وأعلى قيمة ان لم نجدها فى رسالة نبوية تتناول الأجيال وتتاول الملايين فى كل جيل ؟ وأى أبوة روحانية تغنى عن أبوة اللحم والدم كما تغنى أبوة النبى الذى يتكفل بتربية الأرواح فى أمته ، وفى أم لا يلقاها. فى زمانه ، وأم لا تزال تستجد بعد زمانه الى أقصى الزمان ؟ »

« نذكر هذا حين نذكر حظ محمد من الأبوة الروحية ومن الأبوة النوعية ، ونرى تكافؤا فى الجانبين جديرا بالملاحظة والاعتبار »

نعم ونذكر هذا حين نذكر وفاة الزهراء فى زهرة الشباب ، فى الثلاثين أو ما دون الثلاثين ..

مات الذكور من ذرية محمد صغارا لم يجاوزوا سن الرضاع ، وعاش الإناث من ذريته ولم يرزقن طول العمر ، ومنهن من لم ترزق قوة البنية فى عنفوان الشباب ..

وكانت الزهراء نحيلة سمراء ، يمازج لونها شحوب فى كثير من الأوقات ، وقد رآها النبى عليه السلام فى مرض وفاته فقال لها انها أسرع أهله لحوقا به ، فلم تمض ستة أشهر ، وقيل أقل من ذلك ، حتى لحقت به فى تلك السن التى تستقبل فيها الحياة

وكانت تشكو حيناً بعد حين ، ويعودها النبى يواسيها فى مرضها فإذا هو يواسيها كذلك فى حاجتها ، زارها يوما وهى مريضة فقال لها : « كيف تجدينك يا بنية ؟ » فقالت : « انى لوجعة » . ثم قالت : « وانه ليزيدنى انى مالى طعام آكله .. » فاستعبر عليه السلام وقال : « يا بنية !.. أما ترضين انك سيدة نساء العالمين ! » ..

وزارها يوما وهى تطحن بالرحى وعليها كساء من وبر الابل ، فبكى وقال : « تجرعى يا فاطمة مرارة الدنيا لنعيم الآخرة »

ولم يكن صلوات الله عليه يضمن على فاطمة بما يملك من الانفال ،
فكان يخصها بالقسم الأوفى من حصته كلما فرق رزقا بين ذويه وزوجاته ،
ولكنها كانت فاقدة تعيهم جميعا حين لا يجد النبي ما يفرقه بينهم ، وقد
شكا زوجاته تلك الفاقة فخيرهن بين التسريح لينعمن بالحياة الدنيا
وزينتها ، أو يردن الله ورسوله فيصبرن على ما هو صابر عليه !
الله أكبر ! ..

مثل محمد يعلو على اشتاق المشفقين ، ومن كان في قدرته أن ينعم
من الدنيا بما يقطع قلوب الحاسدين حسدا ثم يرضى لنفسه وآله منزلة
الاشفاق ، فذلك هو الاعظام غاية الاعظام ، وذلك هو المرتقى الذي فيل
فيه :

وبعيد بلوغ هاتيك جدا
تلك عليا مراتب الأنبياء

ان محمدا ييكي لأنه يرى أحب الناس اليه وأقربهم منه جائعة مرهقة ،
ثم لا يملك لها ما يشبعها ويعفيها من عنائها ، وهو يملك كل شيء في
الجزيرة العربية .. ويسأل السائلون من زعانقة المعطلين والمتعصين أعداء
كل دين : « ما برهان النبوة عند محمد ! ؟ »
الله أكبر .. ان لم يكن هذا برهان النبوة فبرهان أى شيء يكون ؟

ولم يكن بالزهراء من سقم كامن يُعرف من وصفه ، فان العرب
لوصافون وان من كان حولها من آل بيتها لمن أقدر العرب على وصف
الصحة والسقم ، فما وقفنا من كلامهم وهم يصفونها في أحوال شكواها
على شيء يشبه أعراض الأمراض التي تذهب بالناس في مستقبل الشباب ،
وكل ما يتبين من كلامهم انه الجهد والضعف والحزن ، وربما اجتمع
اليها اعياء الولادة في غير موعدها ، ان صح أنها أسقطت « محسنا » بعد
وفاة النبي كما جاء في بعض الأخبار

ونعود فنقول انها ضريبة النبوة ، وكم للهداية من ضريبة تضاعف على الهداة مرات بعد مرات !

وحضرها الموت.. وخذلتها جوارحها ، وعزيمتها في مواجهة الموت حاضرة لا تخذلها ، فتولت أمر غسلها وحملها على النعش بنفسها ، وقالت لصاحبتها أسماء بنت عميس بعد ان اغتسلت كأحسن ما كانت تغتسل : « يا أمك ! ائتينى بشيبي الجدد » ، فلبستها ثم قالت : « قد اغتسلت ، فلا يكشفن لى أحد كنفا » ، وشكت نحول جسمها فقالت لصاحبتها : « أتستطيعين أن توارينى بشيء ؟ » قالت : « انى رأيت الحبشة يعملون السرير للمرأة ويشدون النعش بقوائم السرير » فعمل لها نعشها قبل وفاتها ، ونظرت اليه فقالت : « سترتموني ستركم الله .. » وتبسمت ، ولم تثر مبتسمة بعد وفاة أبيها الا ساعتها ...

وكانت وفاتها ، على القول الأشهر ، ليلة الثلاثاء لثلاث خلون من رمضان سنة احدى عشرة للهجرة ، ودفنت ليلا حسب وصايتها كما دفن رسول الله ..

في كل دين صورة للأنوثة الكاملة المقدسة يتخضع بتقديسها المؤمنون كأنما هي آية الله فيما خلق من ذكر وأثى ..
فاذا تقدمت في المسيحية صورة مريم العذراء ، ففي الاسلام لا جرم تتقدس صورة فاطمة البتول

شخصية الزهراء

من الواضح البين أن الزهراء أخذت مكانها الرفيع بين أعلام النساء في التاريخ لأنها بنت نبي ، وزوجة امام ، وأم شهداء ..
ولكن لا يتضح هذا الوضوح ، ولا يبين هذا البيان ، انها تأخذ مكانها هذا « بحقها الشخصي » أو بصفاتها التي كان لها أثر في حوادث التاريخ وهذا الذي نحب أن نقرره في الكتابة عن الزهراء ، فهي أصل قوى من أصول الدعوة التي ثبتت في مجرى الزمن أجيالا طويلا ولم تزل لها آثارها في عصرنا هذا ، وفيما يلي من العصور
لم يعرف التاريخ نظيرا لثبات بنى على وفاطمة على حقهم في الامامة ، أو في الخلافة ..

حاربوا فيها زنا ، وتولاها من لا شك عندهم ولا عند الناس في فضلهم عليه ، كيزيد بن معاوية . فأنفوا أن يتركوها استخذاء وخضوعا ، وحاربوا فيها كما حاربوا ، وصمدوا للطلب الحثيث طالبين ومطلوبين مائة سنة ، ثم مائتين ، ثم ثلثمائة سنة ، حتى دانت لهم الخلافة باسمهم في عهد الدولة الفاطمية

لولا خصال فيهم تعين على هذا النضال لما ثبتوا عليه هذا الثبات ، ولا استطاعوا أن يصمدوا للعسف والعنت من بنى أمية ثم من بنى العباس ، ومعهم في المشرق والمغرب أعوان وأتباع ، وقد جدوا غاية الجد في نكالهم بأبناء على وفاطمة في كل مكان ، وصنعوا بهم ما كان خليقا أن يستأصلهم استئصالا أو يرغمهم على اليأس والتسليم ولكنهم نجوا من الاستئصال بقضاء لا حيلة فيه للحاكمين المسيطرين ،

وخطر لهم كل خاطر إلا أن يستكينوا للرغم ويسلموا للسيف ، ويقعدوا مع الخالفين ..

لولا خصال فيهم لما كان هذا منهم

فاذا كان مرجع هذه الخصال الى وراثة ، ولا بد لها من نصيب من الوراثة ، فقد ورثوها عن فاطمة كما ورثوها عن علي ، بل هي الى ميراثهم من الزهراء أقرب منها الى ميراثهم من الامام

بعض الأخبار يفيد ان صح ، وان لم يصح ، ومن هذه الأخبار خبر الرواة الذين قالوا ان عليا جامل فاطمة فلم يبايع أبا بكر الا بعد وفاتها ان صح هذا الخبر أو لم يصح فدلالته صحيحة ، وهي اعتقاد الناس في ذلك العصر ان القضية قضية الزهراء وان الامام يجاملها فلا يفضيها ، وانه كان يرى ان الخلافة أحق بأن تطلبه معرفة بحقه ، فان لم تعرف له هذا الحق فما هو بالحريص على الشغل بها والتدبير لطلبها والسعى اليها ..

وفي غير هذا الخبر ما يدل هذه الدلالة ، وربما كان من تلك الأخبار ما يعبره المؤرخ ولا يلقي اليه بالا ، وهو في هذا الباب أدل من كثير ، كالخبر الذي روى عن الحسن عليه السلام وهو بعد طفل صغير ..

رووا ان الصديق رضى الله عنه قام على المنبر يخاطب الناس ، فما هو الا أن حمد الله وأخذ في خطبته حتى سمع وسمع الحاضرون معه صوتا فحسبوا يهتف به : « ليس هذا منبر أبيك ، انزل عن منبر أبي ... »

والتفتوا فاذا بالصائح هو الحسن بن علي ، ولما يبلغ الثامنة ، فابتسم الصديق وقال والحنو يشيع في نفسه : « ابن بنت رسول الله ؟ صدقت والله ... ما كان لأبي منبر ، وانه لمنبر أبيك » ..

وسمع علي بالخبر فأرسل الى أبي بكر رسولا يقول له : « اغفر ما كان من الغلام ، فانه حدث ، ولم تأمره »

قال أبو بكر : « اني أعلم . وما اتهمت أبا الحسن »

وليست الزهراء ولا ريب هي التي أمرت الغلام الصغير أن يقول هذا المقال .. ولكن الطفل يفهم عن أمه في هذه السن ما يغنيه عن الأمر والايحاء ، ولعل الحسن كان قد سمع نقاشا بتكرر بين أبويه في هذا الأمر ، فوقر في نفسه أن يثور تلك الثورة الصغيرة ، ثم نهى عنها فلم يَـاودها ..

في خلائق السيدة فاطمة مدد صالح للثبات على الحق الذي يعتقده صاحبه ، أو يزداد عنه فلا ينكص عنه على رغم كانت شديدة الاعتزاز بانتسابها الى أبيها ، وكانت مفطورة على يفين الدين ، وكانت ذات ارادة لا تهمل في حساب شأن من شؤونها ، فظهر منها في المواقف القليلة التي نقلت عنها أنها كانت ذات ارادة لاتنسى في الحساب ..

كان من اعتزازها بالانتساب الى أبيها أنها كانت تسر بشبابهه أبنائها لأبيها ، وكانت تذكر ذلك حين تدللهم وتلاعبهم ، فلم يكن أحب اليها من أن يقال لها ان أسباط رسول الله يشبهون رسول الله .. وكانت فطرة الدين فيها وراثة من أبوين : كان حسبها ما ورثته من خاتم الأنبياء وما تعلمته منه بالتربية والمجاورة ، ولكنها أضافت اليه ماورثته من أمها ، أمها بنت خويلد الذي تصدى لعاهل اليمن غيرة منه على الكعبة ، وابنة عم ورقة بن نوفل الذي سُغل بالدين في الجاهلية حتى فرغ له حياته ، غير مدعو ولا مأمور

ومن فطرة الدين في وريثة محمد وخديجة انها كانت شديدة التحرج فيما اعتقدته من أوامر الدين ، خنى وهمت ان أكل الطعام المطبوخ يوجب الوضوء ، يظهر ذلك من حديث الحسن بن الحسن عن فاطمة حيت قالت : « دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فاكل عرقا فجاء بلال بالأذان ، فقام ليصلى ، فأخذت بثوبه فقلت : يا أبة ! ألا تتوضأ ؟ فقال : مم أنوضأ

يا بنية ؟ فقلت : مما مست النار . فقال لى : أو ليس أطيب طعامكم
ما مست النار ؟ ..

فهى فيما تجهله تتحرج ولا ترخص وتؤثر الشدة مع نفسها على
الهوادة معها ..

وقد ذكر غير واحد من الصحابة ، وذكرت السيدة عائشة ، انها كانت
أشبه الناس بمحمد فى مشيتها وحديثها وكلامها ، وزادت عائشة فقالت :
مارأيت أفضل من فاطمة غير أبيها ، واستغربت مرة أن تكون فاطمة كسائر
النساء حين رأتها تبكى ثم تضحك الى جوار رسول الله فى مرض وفاته ،
ثم علمت أنها ضحكت لأنها سمعت من أبيها أنها لاحقة به عما قريب
أما انها كانت رضى الله عنها ذات ارادة لا تهمل ، فقد بدا ذلك فى أمر
زواجها ، وفى حاجتها لزوجها ، وم حاجتها لأبى بكر وعمر ، وفيما كان
يتوخاه على من مرضاتها بصدد المبايعة قبل وفاتها

وقد يكون من دلائل الارادة فى المرأة خاصة أنها تلزم الصمت ولا تكثر
الكلام ، وقد كان من عادة الزهراء أنها لا تتكلم حتى تسأل ، وانها لاتعجل
الى الحديث فيما تعلم فضلا عما لا تعلم ، ولهذا انحصرت أحاديثها عن
أبيها فيما كانت تسمعه منه بين البيت والمسجد ، ولم ترد عليه
ولا تنسى ان الزهراء قد غوضت وهى فى الثلاثين أو قبل الثلاثين ،
فاذا ظهر منها هذا الجد وهذا اليقين وهذه العزة وهذه الارادة وهى فى
تلك السن الباكرة فذاك ولا شك دليل على قوة كامنة يرجع اليها حين
يفسر المفسرون خلائق بنينا وماعساهم قد استمدوه من هذا الميراث المكين

الدُّرِّيَّةُ الفَاطِمِيَّةُ

كانت العرب أمة نسابة ، يعنينا النسب لأنها تعتمد عليه في مفاخرها كما تعتمد عليه في مصائرهما ، فهو الذى يعين لها أصول قبائلها وأصول ذوى الرئاسة فيها ، وهو كذلك يعين لها من يطالبونه بثأر ويحاسبونه على جريرة ، ومن يلحق بهم عاره ويرأون منه أو يظلمونه ، فالخليع عندهم من لا خلاق له فلا هو يبالى بشيء ولا يبالى به أحد ، ولا يوجد من يسأل عن دمه أو يحفل بحياته وموته

ان الخليع عندهم هو القطيع عن نسبه
ولهذا حفظوا أنسابهم فى الجاهلية ما استطاعوا وجاءهم الخطأ فيها من تقادم العهد وكثرة الرحلة وجهل الكتابة والقراءة
وبعد الاسلام وجب حفظ الانساب ولجأوا اليه فى تدوين الدواوين كما لجأوا اليه فى ميادين القتال ، فكلما حمى وطيس القتال نودى فى القوم : اتسبوا . ليستحى المرتد من الهزيمة التى يلحق عارها به وبذريته ما بقيت لهم سيرة فى ذاكرة ..

وعظمت العناية خاصة بذرية النبى عليه السلام ، صونا للنسب الشريف ، ودفعا للادعاء من طلاب الخلافة ، فلم يقع لبس قط فى نسب أبناء فاطمة مدى الصدر الأول من الاسلام .. ولم ينهض منهم قط امام مشكوك فى نسبه على عهد الدولة الأموية ، ولم يكن الشك فى النسب مطعنا فى دعوى أحد منهم بعد قيام الدولة العباسية ، ولم يزل أمرهم كذلك الى أن قامت لهم دولة بالمغرب وسميت بالدولة الفاطمية . أما قبل ذلك فقد كان دعاة الدولة العباسية يناقشونهم الحجة فى حق الخلافة مع اعترافهم باتسابهم

الى السيدة فاطمة ، ولا ينكرون عليهم صحة الانتساب اليها رضى الله عنها
من ذلك ما روى عن المأمون أنه قال يوما لعلى بن موسى الرضا : « بم
تدعون هذا الأمر ؟ قال : بقرابة على من رسول الله وبقراة فاطمة رضى الله
عنها ، فقال له المأمون : ان لم يكن هاهنا الا القرابة فقد خلف رسول الله
صلى الله عليه وسلم من كان أقرب اليه من على أو من فى مثل قدره ، وان
كان بقرابة فاطمة من رسول الله صلى الله عليه وسلم فان الحق بعد فاطمة
للحسن والحسين ، وليس لعلى فى هذا الأمر حق وهما حيان ، فان كان
الأمر كذلك فان عليا قد ابتزهما حقهما وهما صحيحان واستولى على ما
لا يجب له »

قال رواة هذا الحديث : « فما أجابه على بن موسى بشيء »
وظاهر أن على بن موسى قد لزم الصمت هنا على حد قول أبى العلاء :
تلوا باطلا وجلوا صارما
وقالوا : صدقنا ؟ فقلنا : نعم !

والا فما كان لحجة من أبناء على وفاطمة — وقد رزقوا اللسن والفصاحة
أن يعجز فى هذا المقام عن الكلام الذى يقال فى الرد على كلام المأمون ،
وأقر به على اللسان ان عليا ان كان قد استولى على حقه فهم ورثته ، وان
كان قد استولى على غير حقه فهم أصحاب الحق ، وقد سمع خلفاء بنى
العباس كلاما كهذا وأشد من هذا من الخارجين عليهم باسم العلويين
والفاطميين ، وأيسره أن أحدا من جدود بنى العباس فى حياة الحسن
والحسين لم يطلب الخلافة حين طلباها

الا أن دعاة الدولة العباسية انما كانوا يدفعون دعوى العلويين بمثل
حجة المأمون ولا يتعرضون لصحة النسبة ولا يجسرون على محاربة
الولاء للمتسبين الى الزهراء ، الا أن يدعوا عليه أنه حمل السيف وخرج
للقاتل أو أعلن العصيان

قال العتبي : « كان بين شريك القاضى والربيع حاجب المهدي معارضة ،

فكان الربيع يحمل عليه المهدي فلا يلتفت اليه ، حتى رأى المهدي في منامه شريكا القاضى مصروفا وجهه عنه ، فلما استيقظ من نومه دعى الربيع وقص عليه رؤياه ، فقال : يا أمير المؤمنين ! ان شريكا مخالف لك ، وانه فاطمى محض . قال المهدي : على به ! فلما دخل عليه قال له : يا شريك ! بلغنى أنك فاطمى . قال شريك : أعيذك بالله يا أمير المؤمنين أن تكون غير فاطمى . الا أن تعنى فاطمة بنت كسرى ! قال : ولكنى أعنى فاطمة بنت محمد صلى الله عليه وسلم . قال شريك : أفتلعتها يا أمير المؤمنين ؟ قال المهدي : معاذ الله . قال : فماذا تقول فيمن يلعتها ؟ قال : عليه لعنة الله ! قال : فالعن هذا — وأشار الى الربيع — فانه يلعتها ، قال الربيع : لا والله يا أمير المؤمنين ما ألعتها . فقال شريك : يا ماجن ! فما ذكرك لسيدة نساء العالمين وابنة سيد المرسلين في مجالس الرجال ؟ قال المهدي : دعنى من هذا . فانى رأيتك في منامى كأنك مصروف عنى وقفاك الىّ ، وما ذلك الا بخلافك علىّ ، ورأيت في منامى كأنى أقتل زنديقا . قال شريك : ان رؤياك يا أمير المؤمنين ليست برؤيا يوسف الصديق صلوات الله على محمد وعليه ، وان الدماء لا تستحل بالأحلام ، وان علامة الزندقة بينة . قال : وماهى ؟ قال : شرب الخمر والرشى في الحكم ومهر البغى . قال : صدقت والله يا أبا عبد الله . أنت والله خير من الذى حملنى عليك »

وحدث مثل هذا في معارض كثيرة ، فوشى بأناس أنهم يوالون أبناء فاطمة فلم يجسر الخلفاء على المساس بهم ، واضطروا الى التعلل لهم بغير تلك العلة ..

ثم هجمت الدعوة الفاطمية على الدولة العباسية بما لا طاقة لها بدفعه مع الاعتراف بنسب أصحاب الدعوة ، فانتقلوا من المناقشة بالحجة في حق العم وابن العم ، والموازنة بين حق العباس عم النبي وحق على ابن عمه ، الى انكار النسب بته ، وساعدهم على ذلك تفرق الأئمة الفاطميين في الأرجاء واستتارهم بالدعوة ووقوع اللبس في الكنى والألقاب ، فطعنوا في انتساب

الفاطميين الى السيدة فاطمة ، وأذاعوا عنهم ذلك المنشور الذى سيأتى ذكره فى القسم الثانى من الكتاب ، واشترك فى هذه المنابذات أناس من علماء النساين شملتهم غواية السياسة كما شملت غيرهم ، وكان من عبرتهم ان هوى السياسة لا يؤمن على عقل الحكيم ولا على علم العليم

مثال هذا أن صاحب كتاب جمهرة الأنساب ، وهو الفيلسوف الحكيم ابن حزم ، لم يسلم من فتنة هذه الغواية ، فقال وهو يتكلم عن ذرية اسماعيل بن جعفر الذى يتنسب اليه الفاطميون ويسمون من أجل ذلك بالاسماعيلية : « وادعى عبيد الله القائم بالمغرب أنه أخو الحسن البغيض هذا ، وشهد له بذلك رجل من بنى البغيض وشهد له بذلك جعفر بن محمد بن الحسين بن أبى الحر على بن محمد الشاعر بن على بن اسماعيل ابن جعفر ، ومرة ادعى أنه ولد الحسين بن محمد بن اسماعيل بن جعفر ، وكل هذه دعوى مفتضحة ، لأن محمد بن اسماعيل بن جعفر لم يكن له قط ولد اسمه الحسين ، وهذا كذب فاحش ، ولأن هذا النسب لا يخفى على من له أقل علم بالنسب ولا يجهل أهله الا جاهل »

ونحن نخص ابن حزم بالذكر فى هذا المعرض لأنه مثل للتقيضين المتقابلين فيما يوجب الثقة وما يوجب الشك غاية الشك فى مؤلف واحد ونسابة واحد ..

فعلم ابن حزم بالأسانيد والأنساب معروف ، ولكنه فى هذا المعرض خاصة عرضة للهوى كأشد ما يكون الهوى ، حتى ليكون تكذيبه لرواية داعية من دواعى احتمالها وقبولها

كان ابن حزم أمويا غالبا فى التشيع للاموية ، وكانت دولتهم فى الأندلس على خطر من الدعوة الاسماعيلية ، وبلغ من كراهته للاسماعيليين أنه تحول من المذهب الشافعى الى المذهب الظاهرى أى المذهب الذى يأخذ بظاهر النص ويرفض التأويل ، لأن مذهب الاسماعيليين يقول بالتأويل وبأنه من حقّ الامام ..

بل قد بلغ من كراهته القوم انه لا يطيق أن يذكر الرجل منهم بلقبه المتعارف عليه ، فيلقبه بالبغيض بدلا من الحبيب ، ولعله لم يضع كتابه في جمهرة أنساب العرب الا ليثبت حق بنى أمية في الخلافة لأنهم من فريش فصعد بحق الخلافة الى جد الأمويين والهاشميين وقال في مقدمة كتابه : « ومن الغرض في علم النسب أن يعلم المرء أن الخلافة لا تجوز الا في ولد فهر بن مالك بن النضر بن كنانة ، ولو وسع جهل هذا لأمكن ادعاء الخلافة لمن لا تحل له ، وهذا لا يجوز أصلا.. » . وقد ترقى ابن حزم من الحديث عن الفاطميين الى المناقشة في معنى الحديث القائل ان فاطمة سيدة النساء ، وأنه لا يعنى أنها أفضل نساء العالمين !

ونحن ننزه ابن حزم عن تعدد الافتراء ، ولكننا نقول ان هواه قد جنح به الى قبول ما ليس بحجة في اثبات نسب أو دفع نسب ، ولولا ذلك لوقف على الأقل موقف التردد بين النفي والاثبات

وفيما يلي كلام يتناول هذا الموضوع ببعض التفصيل ، ونسلف القول في تلخيصه فنقول : اتنا لا نزعّم أننا وقفنا على الدليل القاطع الذي يثبت نسب عبيد الله رأس الدولة الفاطمية ، ولكننا لم نقف على دليل قاطع ينفي ذلك النسب ، ووقفنا على شبهات كثيرة توجب الشك في مطاعن الطاعنين ، وهذه الشبهات في روايات نسابة كابن حزم نموذج لما وقفنا عليه

..وَالْفَاطِمِيُّونَ

- * الفاطميون ...
- * النسب ...
- * الباطنية ...
- * الباطنية الفاطمية ...
- * حسن بن الصباح ...
- * بناء وهدامون .. ومهدومون ..
- * حضارة محتضرة ...

الفاطميون

كل أبناء السيدة فاطمة الزهراء فاطميون ، ولكن اسم الفاطميين يطلق في تاريخ الدول على أبناء اسماعيل ابن الامام جعفر الصادق ، ويسمون من أجل هذا بالاسماعيليين

وقد كان أبناء الزهراء يعرفون أحيانا باسم آل البيت ، فلما استأثر العباسيون بالخلافة غلب عليهم اسم العلويين

وجاء الفاطميون ففضلوا الانتماء الى الزهراء ، لأنهم يقيمون حقهم في الخلافة على أنهم أسباط النبي عليه السلام ، وأنهم أبناء الوصي على بن أبي طالب ، ولكن العباسيين ينازعونهم دعوى الوصاية وينكرونها ، ويقولون ان الانتساب الى النبي من جانب عمه العباس أقرب من جانب على ابن عمه أبي طالب ، ومن أجل هذا يسمى الفاطميون بهذا الاسم لأن بنوة الزهراء نسب لا يدعيه العباسيون

أما تغليب اسم الاسماعيليين عليهم فمرجه انتمائهم الى اسماعيل بن جعفر الصادق ، وقولهم انه هو الامام بعد أبيه ، وبهذا الاسم يتميزون من أبناء السيدة فاطمة الآخرين ، وهم ذرية موسى الكاظم ، وهو الأحق بالامامة في مذهب الاماميين الاثنى عشرين

وقد كان الامام جعفر الصادق وصي بالامامة بعده لابنه الأكبر اسماعيل ، ثم نجاه عنها ووصى بها لابنه موسى الكاظم ، وقيل في أسباب ذلك انه علم أن اسماعيل يشرب الخمر ، وقيل ان اسماعيل مات في حياة أبيه فاتقلت ولاية العهد الى أخيه

أما الاسماعيليون فمذهبهم أن تحويل الولاية لا يجوز ، لأن الولاية أمر من الله يتلقاه الامام المعصوم ، والبداء لا يجوز على الله ، ويعنون بالبداء

أن يبدو لله أمر فيعدل عما أمر به قبل ذلك

ومن الاسماعيليين من ينفى موت اسماعيل في حياة أبيه ، ويقولون انه شوهد بعد تاريخ الاشهاد على وفاته ، وانما أشهد أبوه على وفاته خوفا عليه من الغيلة ومن تربص الخلفاء العباسيين به كما كانوا يصنعون بالعلوين المرشحين للدعوة ، واستدلوا على هذا بالاشهاد على وفاته وتوقيع الشهود عليه ، اذ لم تجر العادة بمثل هذا الاشهاد لولا الحيلة والتقية

والخلاف بين الاسماعيليين وبين سائر الفاطميين قائم على امامة اسماعيل ، والاماميون الذين لايسلمون الامامة لاسماعيل وذريته طوائف متعددة ، أهمها وأكبرها طائفة الاماميين المعروفين بالاثني عشرين ، لأنهم ينتهون بالامامة الى محمد المنتظر بن الامام حسن العسكري ، وعندهم أنه سيظهر في زمانه الموعود ، ولهذا يدعون بتعجيل فرجه كلما ذكروه

ويتفق الاماميون على اعتقادهم عصمة الامام في تبليغ شؤون الامامة ، لأنه موئل السؤال والفتوى في أحكام الدين والدنيا ، فلا يجوز الخطأ عليه في هذه الأحكام ..

ويضيف الاسماعيليون الى أسباب العصمة عقيدة التأويل ، فان أحكام الدين عندهم لها ظاهر وباطن ، ولا يعلم تأويلها غير الله والراسخين في العلم ، والأئمة هم الراسخون في العلم وهم أولى الناس أن يعلموا ما ليس يعلمه المؤمنون ..

ولهذا يسمى الاسماعيليون بالباطنيين ، ومنهم من لايقصر أمور الباطن على أحكام الدين وآيات الكتاب ، بل يقولون ان كل موجود على الأرض فله نظير في الفلك الأعلى ، وان مقادير هذه الموجودات تابعة للمقادير التي تجرى على نظرائها في السماء

ولما استتر الأئمة شاع بينهم علم النجوم والرياضة والفلسفة على العموم ، وكان الاماميون من عهد على رضى الله عنه يؤمنون بالهامه واطلاعه على أسرار كتاب الجفر وما اليه من كتب النجوم ، ولكن الأئمة الاسماعيليين أمعنوا في دراسة هذه العلوم لأنهم لاذوا بالخفاء في عهد انتشارها

رازدارها ، وأصبح علمهم بالأسرار خاصة مطلوباً منهم فوق علمهم
الراسخ بشؤون الإمامة في الدنيا والدين ، فإذا سأل السائلون عن أمر
مستور فأولى الناس بعلمه الإمام المستور الذي يعلم مواطن السر والجهر
وينحين أوقات الفلك لإظهار ماخفى من أمور الدعوة وأمور الإمامة ، وكل
أمر ترتبط به مصالح العباد

ودخل عدد الأئمة نفسه في خصائص الأعداد ، فمن قديم الزمن يعتقد
أصحاب النجوم سرا خاصاً في عدد السبعة وعدد الاثنى عشر ،
ويستشهدون على ذلك بعدد الأفلاك السبعة وعدد أيام الأسبوع وعدد
فتحات الوجه ، كما يستشهدون عليه بعدد الشهور وعدد البروج
السمائية وعدد أسباط بني إسرائيل ، وعلى هذا يدور الخلاف بين المهتمين
بالتنجيم على عدد الأئمة أهو سبعة أم اثنى عشر .. ولكل منهم فيه
كلام طويل ..

وللامامين فروق يسطونها بين النبي والإمام والحجة والنيب ، فالنبي
يبعث في زمان بعد زمان ، والإمام قائم في كل زمان ، وقد يكون الإمام
اماماً مستقراً فهو صاحب الحق في التوصية لخليفته من بعده ، أو امماً
مستودعاً فهو يحمل أمانة الإمامة لضرورة موقوتة ثم يردّها إلى صاحبها
ولا حق له في التوصية لغيره . أما الحجة فهو لازم في الخفاء إذا كان الإمام
ظاهراً في العلانية ، لأن الإمام الظاهر عرضة للضرورات فلا بد معه من
حجة يرجع إليها لاستبانة الحقائق بمعزل عن ضرورات السياسة ، أما إذا
استتر الإمام فلا بد له من حجة ظاهر ، وقد يسمون الإمام بالناطق أو
بالصامت تبعاً للظهور والخفاء والمجاهرة بالحكم والتأويل فيه

أما النقباء فالغالب انهم دعاة أو وكلاء ، ولا بد لهم من أئمة يرجعون
إليهم في كل زمان ..

أعلنت وفاة اسماعيل في حياة أبيه كما تقدم ، فانعقدت الإمامة بعده
لابنه محمد ، وارتحل محمد من الحجاز إلى الرى ، أما لأنه لم يطق

منافسة عمه موسى الكاظم على زعامة العلويين ، واما لأنه آثر الانزواء والتستر ودفع الأذى من جانب العباسيين ، وقد لقب بالامام المكتوم لأنه لم يعلن دعوته وأخذ في بثها خفية وهو يتنقل من بلد الى بلد ومن قطر الى قطر كلما تنبعت اليه العيون ولاحقته الظنون ، ثم ضاق المشرق كله بخلفائه فهجره عبيد الله الى المغرب وكان أول من نودى له بالخلافة الفاطمية ..

ونسبه كما يقره المعترفون بهذا النسب هو عبيد الله بن أحمد بن اسماعيل الثاني بن محمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق . أما القائلون بانتسابه الى ميمون القداح - كما سيلي - فهو في زعمهم محمد بن عبد الله بن ميمون بن محمد ابن اسماعيل بن جعفر الصادق

ويوفق المؤرخ الهندي « مأمور » (١) بين الروايتين توفيقا محتملا جد الاحتمال فيقول ان محمدا المكتوم كان يخفى نفسه ويتعاطى طب العيون مداراة لحقيقته ، وان اسم « ميمون » كان من الأسماء التي اتحلها في حال استتاره ، والقداح هو لقب الطبيب الذي يعالج العيون

ولا نهاية للروايات والتخريجات التي تعلل سفره من المشرق الى المغرب ، فمن الرواة من يزعم أنه علم بتأمر القرامطة عليه فخرج من سلمية حيث كان مقوما بجوار حمص ورحل الى مصر وهو يورى بالرحلة الى اليمن ، ومن قائل ان بعض جلساء الخليفة العباسي ممن يدينون بالمذهب الاسماعيلي سرا قد علم بعزم الخليفة على اعتقاله وقتله فبادر الى تحذيره ، ومن قائل انه تلقى البشارة من كبير دعااته في المغرب بانتشار البيعة له بين القبائل المغربية فرحل الى المغرب ليتولى الأمر بنفسه في هذه الفترة الحاسمة ، وتتفق الروايات على أنه حينما سافر الى مصر وانتقل منها الى المغرب كان مطاردا وكان على رأسه جعل لمن يأتي به حيا أو ميتا حيث كان

(١) كتاب الجدل والنقاشات في الخلفاء الفاطميين
Polemics on the origin of the Fatimi Caliphs

والروايات تنفق كذلك على ان الدعوة كانت موكولة في المغرب الى
أبى عبيد الله الصنعاني من صنعاء اليمن ، واسمه الكامل هو الحسن بن
أحمد بن محمد بن زكريا ، وكان من ولاية الحسبة في بغداد

جاء في وصفه من كتاب - البيان المغرب في أخبار المغرب - لابن
عذارى المراكشي وهو من أعداء الاسماعيليين - « فاختاروا منهم رجلا
ذا فهم وفصاحة وجدال ومعرفة يسمى أبا عبد الله الصنعاني ... فسار
أبو عبد الله هذا الى موسم الحج ليجتمع به مع من يحج تلك السنة من
أهل المغرب ويذوق أخلاقهم ويطلع على مذاهبهم ويتحيل على نيل الملك
بضعيف الحيل .. ورأى في الموسم قوما من أهل المغرب فلصق بهم
وخالطهم وكانوا عشرة رجال من قبيل كتامة ملتفين على شيخ منهم ،
فسألهم عن بلادهم فأخبروه بصفاتها ، وسألهم عن مذهبهم فصدقوه عنه ..
ولم يزل يستدرجهم ويخبلهم بما أوتى من فضل اللسان والعلم بالجدن
الى أن سلبهم عقولهم بسحر يائه ، فلما حان رجوعهم الى بلادهم سألوه
عن أمره وشأنه فقال لهم : أنا رجل من أهل العراق ، وكنت أخدم
السلطان ، ثم رأيت أن خدمته ليست من أفعال البر فتركها وصرت أطلب
المعيشة من المال الحلال ، فلم أر لذلك وجهها الا تعليم القرآن للصبيان ،
فسألت أين يتأتى ذلك تأتيانا حسنا فذكر لى بلاد مصر ، فقالوا له : ونحن
سائرون الى مصر وهى طريقنا ، فكن في صحبتنا اليها ، ورجعوا منه في
ذلك ، فصحبهم في الطريق فكان يحدثهم ويميل بهم الى مذهبه ويلقى
اليهم الشئ بعد الشئ الى أن اشربت قلوبهم محبته ، فرغبوا منه أن يسير
الى بلادهم ليعلم صبيانهم ، فاعتذر لهم ببعد الشقة ، وقال لهم ان وجدت
بمصر حاجتى أقمت بها ، والا فربما أصحبكم الى القيروان ، فلما وصلوا
مصر غاب عنهم فيها كأنه يطلب بغيته ، ثم اجتمعوا به وسألوه فقال
لهم : لم أجد في هذه البلاد ما أريد ، فرغبوه أن يصحبهم فأنعم لهم
بذلك .. »

ولا يتسع الكلام في هذا المجال لسرد أعمال أبي عبيد الله في المغرب ، فالذى عنيناه هنا هو الإشارة الى أساليب هؤلاء الدعاة في دخول البلاد التى يقصدونها بالدعوة ، وأول هذه الأساليب أن يكون الداعية مطلوباً لا طالباً وأن يكون له حماة وأتباع من أبناء البلد قبل دخوله اذا استطاع ، وقد سار أبو عبيد الله الشيعى على هذا الأسلوب حتى تمكن من القبائل واستمال اليه قبيلة كتامة القوية بعددها وشجاعة رجالها فاتخذ الحول بعد الحيلة وجرّد السيف وهزم دولة الأغالبة أعوان العباسيين وضمن لمولاه النجاح فاستقدمه فوصل الى جبال الأطلس قبيل انتهاء القرن الثالث للهجرة (سنة ٢٩٦)

كذلك يطول الكلام لو تتبعنا أعمال المهدي وخطه التى رسمها لاقامة عرشه في افريقية وبسط كلمته من ورائها الى الأقطار الاسلامية ، فان ملك المهدي في المغرب قد دام أربعاً وعشرين سنة الى أن توفي (سنة ٣٢٢ للهجرة) فخلفه ابنه القائم وخلف القائم ابنه المنصور وخلف المنصور ابنه المعز (سنة ٣٤١ للهجرة) وهو الذى فتحت مصر في عهده وانتقلت من خلافة العباسيين الى خلافته (سنة ٣٥٦ للهجرة) فجاءوها كعادتهم مطلوبين ممهدا لهم الطريق في الداخل والخارج بالدعوة والسلاح

ان تاريخ الدولة الفاطمية جدير أن تفرد له المجلدات الضخام ، لأنه تاريخ يغنى عن التواريخ . اذ كانت هذه الدولة نموذجاً يقاس عليه ويعرض فيه ما لا يعرض في قيام الدول الأخرى من العبر والأطوار وصنوف التدبير والمصادفة . فهي الدولة التى قامت بين ست دول أو أكثر من ست دول اسلامية وأجنبية تحاربها وتخشى عاقبة قيامها ، وأسست حقها على دعوة يتألب الخصوم من حولها على انكارها ، واعتمدت في الدعوة على وسائل لم يسبقها اليها سابق ولم يلحقها نظير لها في تلك الوسائل الى هذا القرن العشرين ... فمن تلك الوسائل فن التخذيل أو « الطابور الخامس » كما يسمى في العصر الحديث ، ومنها تسخير العلم

والفن والفلسفة والقصص في نشر الدعوة الظاهرة والخفية ، ومنها الاستعانة بالجماعات السرية وترتيب الأدوار المنظمة لتنفيذ سياسة بعد أخرى ، ومنها المواقب والمواسم والمخاطب والأعياد والعادات الاجتماعية ، وكانت تثابر على الدعوة ولا تهمل معها أركان الملك من تشييد المدن وتنظيم الدواوين وترتيب الرتب وتدريب الجيوش وبناء الأساطيل وفتح المدارس والجامعات وتزويدها بالمكتبات وتشويق الناس إليها بمجالس المحاضرة والمناظرة في أيام محدودة يشهدها الرجال والنساء

قيام الدولة الفاطمية في الواقع نموذج لقيام الدول بالحول والحيلة ، ولو استغنى التاريخ بدولة واحدة عن دول كثيرة لكانت هذه الدولة حسب من عبره وأطواره وتديراته ومصادقاته ، ولسنا في صدد الإفاضة في هذه الدراسة بتفصيلاتها وفروعها ، ولكننا نظرق منها في هذه العجالة ما له علاقة بالانتساب الى الزهراء وما له علاقة بأثارها الباقية في هذا البلد ، لأنه البلد الذي شهد من الدولة الفاطمية أهم أدوارها وأفخم عهودها ، وكانت مخلفاتها فيه أبقي الخلفات في تاريخها الحديث

النَّسَبُ

الدعوى المنتظرة هي أقوى الدعاوى ، وهي كذلك - ومن أجل ذلك - أضعفها وأولاها بالتشكك والمراجعة

والمقصود بالدعوى المنتظرة كل دعوى تملئها البواعث النفسية أو البواعث السياسية والاجتماعية ، وهي قوية لأنها لاتأتى عفوا ولا يكتفى المدعون فيها بإبدائها وترك السامعين وشأنهم فى قبولها أو الاعراض عنها ، بل هم يدعونها ويحتالون على إرادها مورد الصدق وتمثيلها فى صورة الكلام السائغ المحقق ، ثم يكررونها ويلحون فى تكريرها ويتحينون الفرص لنشرها فى مظان الاصغاء اليها والرغبة فى اثباتها

وإذا كانت البواعث التى تملئها متعددة متجددة كان ذلك خليقا أن يزيد بها قوة على قوة والحا على الحاح ، فهي تتوارد من جهات كثيرة وترجع الى الظهور كرة بعد أخرى ، كلما خيف عليها أن تضعف ، وكلما تعاظم الرجاء فى التحدث بها والاتفات اليها ان الدعوى المنتظرة قوية من أجل هذا وهي من أجل هذا بعينه ضعيفة متهمة

لأن البواعث التى تملئها تربى السامع حين تنكشف له ، وقد يكون الإلحاح فيها مشككا لمن يسمعها وكاشفا للغرض والهوى من ورائها وإذا تعددت البواعث كان ذلك أحرى أن يسوق التناقض والاختلاط الى الروايات والأقاويل ، فلا يتفق مروجوها على اختراعها ولا على نقلها ، ومن لم يكن منهم مخترعا لروايته لم يجهد ذهنه فى التوفيق بين النقااض والتقريب بين الأسانيد ، فتصاب الدعوى بالضعف من جراء تعدد البواعث كما تأتىها القوة والمثابرة لهذا السبب ، وتخسر من هنا

كما تكسب من هناك ..

وقد كان اتهام الفاطميين في نسبهم دعوى منتظرة ، وكانت البواعث اليها متعددة متجددة ، فلا جرم تكون في وقت واحد أقوى الدعوات ثم لا تلبث أن تعود أضعف الدعوات

كان الفاطميون يطلبون الخلافة ويعتمدون في طلبها على النسب وكانوا يهددون بمساعيهم في طلب الخلافة خصوما كثيرين يملكون الدول في المشرق والمغرب ولا يريدون النزول عما ملكوه ، أو لا يريدون بعبارة أخرى أن يسلموا للفاطميين صحة النسب الذي يعتمدون عليه

فلم يكن أقرب الى الذهن من مهاجمتهم في نسبهم وتجريدتهم من الحجة التي يؤيدون بها مسعاهم ، فهذه هي الدعوى المنتظرة التي تعددت بواعثها في المشرق والمغرب وتوافقت الأغراض على ترويجها وتثبيتها بين الخائفين على عروشهم من نسب الفاطميين ، وكلهم ذوو سلطان وذو براعة وافتنان ، ومن ورائهم من يرغبون في بقائهم أو يتلقون دعواهم بالتصديق والايان ..

كان الفاطميون يطلبون الخلافة ويعتمدون في طلبها على اتسابهم الى النبي عليه السلام ، وكان هذا النسب حجة معتمدة لايمارى فيها الأكثرون من أتباع الدول الاسلامية الذين تسمى بينهم دعوى آل البيت، غير مستثنى منهم أتباع الدولة العباسية في ذلك العهد على الخصوص ، وهو عهد النقص والأدبار الذي يكثر فيه طلاب الزوال أو طلاب العلل بالحق وبالباطل ، وعلى الانصاف الواضح أو على الجور الصراح

كان مصير الخلافة الى الفاطميين نذيرا بزوال عروش كثيرة ، منها عروش العباسيين في بغداد والأخشيديين في مصر والأغالبة في افرقية الشمالية والأمويين في الأندلس ، والأمراء الصغار المنبثين في هذه الرقعة هنا وهناك ممن يطيب لهم القرار على ما هم فيه ولا يطيب لهم التبديل والانتقال .

وكان هؤلاء المالكون غرباء عن أهل البيت ما عدا العباسيين ، ولكن العباسيين في ذلك العهد خاصة كانوا أخوف الخائفين من نسب الفاطميين ، بعد أن كانت دعوة أهل البيت تشملهم أجمعين منذ ثلاثة قرون عندما ضعفت دولة بنى أمية قويت دعوة آل البيت التى كان يقوم بها العلويون والعباسيون

ولكن العباسيين أخذوا بزمام الدولة الجديدة على اعتقاد الأكثرين انهم كانوا يدعون الى خلافة العلويين أبناء فاطمة وعلى أحق الناس باسم آل البيت في رأى أتباع الدولة الجديدة.، وبلغ من ايمان أتباع الدولة الجديدة بهذا الرأى أن خلفاء بنى العباس أظهروا العزم على الوصاية بعدهم لولادة عهد العلويين ، كما فعل الرشيد والأمين . ثم استحكم العداء بين بنى العباس وبنى على حتى لجأ الأئمة العلويون الى الاختفاء وشاعت يومئذ العقيدة فى الامام المستور ، ثم شاعت الدعوة الى العلويين باسم الفاطميين لأنها أقرب الدعوات الى بنوة محمد عليه السلام . فقد يقال ان العباسيين أبناء العباس عم النبى وان العلويين أبناء على ابن عمه أبى طالب . أما الانتماء الى فاطمة الزهراء ، فهو انتماء الى بيت النبى نفسه ، وليس الى الاعمام ولا أبناء الاعمام

فى أوائل الدولة العباسية ، كانت دعوة آل البيت تشمل العلويين والعباسيين ، وكان الخلاف يسيرا بين الفريقين على أمل التوفيق بينهما بعد حين ، وكانت قوة الدولة فى نشأتها تصمد لهذا الخلاف الذى هان أمره ولم يبلغ أشده فى أول عهده ، وكان يكفى أن يقال عند اشتداده ان وراثة الاعمام أقرب من وراثة أبناء الاعمام

ولكن الدولة العباسية بقيت حتى تضعفت وكثر الساخطون عليها والمتبرمون بها والراغبون فى زوالها ، وكثر كذلك شهداؤها من آل البيت أبناء على وفاطمة ، وزال عنها عطف العاطفين عليها لقرباتها من بيت النبوة ، فتحول عطفهم الى الشهداء المظلومين المشردين فى أرجاء البلاد ، وأصبح تشردهم الذى يظن به أنه يضعفهم مددا لهم من أمداد العطف والولاء ،

وأصبحت دعوة « الفاطميين » وقفا على هؤلاء المشردين المظلومين
لا يشركهم فيها العباسيون ، لأن العباسيين هنا هم الخصوم المحاسبون
على الظلم والنكال واختلال حبل الأمور

ومن الفاطميين هؤلاء يأتي الخطر الأكبر على بني العباس ، ومن
نسبتهم الى فاطمة الزهراء يأتي امتيازهم بحق الخلافة وبهذا الحق يطلبون
النصفة للشهداء والمضطهدين ، فأى شيء أقرب الى مألوف السياسة من
دفع هذا الخطر بانكار هذا النسب ، ومن حصر الولاء لأهل البيت في
القائمين بالأمر من بني العباس ؟

وقد أنكر العباسيون نسب الفاطميين وزعموا انهم يتنسبون الى ميمون
القذاح بن ديصان الثنوي القائل بالالهي ، وتلقف التهمة كل ناظم على
الفاطميين وهم صنوف يتنمون الى كل مذهب ونحلة ، منهم كما أسلفنا
الاخشيديون والاغالبة والامويون الاندلسيون ، وزاد عليهم من كان
تابعاً للفاطميين ثم تمحل المعاذير للخروج عليهم كوالى مكة وبعض رؤساء
العثمانيين في الجزيرة العربية ، بل قيل فيما قيل ان أناساً من العلويين
شهدوا عليهم بادعائهم النسب في على وفاطمة عليهما السلام ، ونسب الى
الشريف أبى الحسين محمد بن على المشهور بأخى محسن الدمشقى انه
كتب رسالة في تفنيد دعواهم ينكرها المقرئ وينسبها الى عبد الله
ابن رزام ..

ويروى عن سبب نشاط القادر بالله الى كتابة الأشهاد بطلان نسب
الفاطميين انه سمع أرباباً نظمها الشريف الرضى يقول فيها :

ما مقامى على الهوان وعندى

مقول صارم وأتف حمى

ألبس الذل في بلاد الأعادى

وبمصر الخليفة المملوكى

من أبوه أبى ومولاه مولا

ى اذا ضامنى البعيد القصى

لف عرقى بعرقه سيد النسا
س جميعا محمد وعلى
ان ذلى بذلك الجسد عز
وأوامى بذلك الربيع رى

فأرسل الى أبيه الشريف أبى أحمد الموسوى يقول : انك قد عرفت منزلتك منا وما تقدم لك فى الدولة من مواقف محمودة ولا يجوز أن تكون أنت على خليفة ترضاه ويكون ولدك على ما يصاد ما لا تزال عليه من الاعتداد بك لصدق الموالاته منك ، وقد بلغنا انه قال شعرا — هو هذه الأبيات — فيا ليت شعرى على أى مقام ذل أقام وهو فاطر فى النقابة — نقابة الأشراف — والحج ، وهما من أشرف الأعمال ، ولو كان بمصر لكان كبعض الرعايا

فأحضر أبو أحمد ولده الرضى فأنكر الشعر ، فأمره أن يكتب بخطه الى القادر بالاعتذار وانكار نسب الحاكم بأمر الله ، فأبى ، فقال له أبوه : « أتكذبنى فى قولى ؟ » فقال : « كلا ما أكذبك ، ولكنى أخاف من الديلم ومن الدعاة فى البلاد » فقال له أبوه : « أتخاف من هو بعيد عنك وتسخط من هو قريب منك ... وهو قادر عليك وعلى أهل بيتك ؟ ... » وغضب أبوه وحلف لا يقيم معه فى بلد ، فلما بلغ الأمر بينهما هذا المبلغ حلف الرضى انه لم يقل تلك الأبيات وكتب بخطه فى محضر الانكار ، وشاع الزعم بعد كتابة ذلك المحضر ان المهدي الفاطمى لم يكن يسمى عبيد الله ، وان اسمه الصحيح « سعيد بن أحمد بن عبد الله القداح بن ميمون بن ديسان » ..

وقد اختلفوا فى نسبته تارة الى المجوس وتارة الى اليهود.. واختلفوا فى الجد الذى كان مجوسيا أو يهوديا ف قيل ان عبيد الله كان ابن حداد يهودى مات عن زوجة فبنى بها الحسين بن أحمد بن عبد الله بن ميمون وتبنى عبيد الله ، وقيل ان عبيد الله قتل فى سجن سجناسة بالمغرب فأشفق داعيه (أبو عبد الله الشيعى) فسماه عبيد الله وبايعه بالخلافة ، وقيل ان أمة

للامام جعفر الصادق علق بها يهودى فولدت منه عبيد الله ونشأ في بيت
الامام منتسيا الى اهل البيت

وقد كانت لهجة البيان العباسى غاية في العنف تتم على الغيظ وتخلو
من الدليل ، ومنه « ان هذا الناجم بمصر هو منصور بن نزار المتلقب
بالحاكم - حكم الله عليه بالبوار والدمار - ابن معد بن اسماعيل بن
محمد بن سعيد - لا أسعده الله - وان من تقدمه من سلفه الأرجاس
الأنجاس عليهم لعنة الله ولعنة اللاعنين خوارج لا نسب لهم في ولد على
ابن أبى طالب رضى الله عنه ، وان ما ادعوه من الاتساب اليه زور وباطل ،
وان هذا الناجم في مصر هو وسلفه كفار فساق زنادقة ملحدون معطلون ،
وللاسلام جاحدون ، أباحوا الفروج وأحلوا الخمر وسبوا الأنبياء
وادعوا الربوبية ... »

ولم يقصر المؤرخون المنكرون عن القوم في العنف والسباب فقال
صاحب كتاب الروضتين في أخبار الدولتين عن الفاطميين ان المعروف عنهم
انهم « بنو عبيد ، وكان والد عبيد هذا من نسل القداح الملحد المجوسى ،
وقيل : كان والد عبيد هذا يهوديا من أهل سلمية من بلاد الشام ، وكان
حدادا ، وعبيد هذا كان اسمه سعيدا ، فلما دخل المغرب تسمى بعبيد الله
وزعم انه علوى فاطمى ، ثم ترقى به الحال الى أن ملك وتسمى بالمهدى ،
وكان زنديقا خبيثا عدوا للاسلام متظاهرا بالتشيع متسترا به حريصا على
ازالة الملة الاسلامية ، قتل من الفقهاء والصالحين جماعة كثيرة ، وكان
قصده اعدامهم من الوجود ليبقى العالم كالبهائم فيتمكن من افساد
عقائدهم ، ونشأت ذريته على ذلك منطوين يجهرون به اذا أمكنتهم الفرصة
والا أسروه ، والدعاة منبثون لهم في البلاد ، وبقي هذا البلاء على الاسلام
من أول دولتهم الى آخرها ، وفي أيامهم كثرت الرافضة وأفسدت عقائد
طوائف من أهل الجبال الساكنين بشعور الشام ، وأخذت الافرنج أكثر
انبلاد بالشام والجزيرة الى أن من الله على المسلمين بظهور البيت الاتابكى

وتقدمه مثل صلاح الدين فاستردوا البلاد وأزالوا هذه الدولة .. «
ومن اعتدل من المؤرخين في الإنكار والسباب ، كابن خلكان ، أيد
التهمة بالقصص التي تؤكد لها لو انها ثبتت كالحقصة التي اشتهرت عن
سيف المعز وذهبه ، وان ابن طباطبا سأل المعز عند وصوله الى مصر عن
نسبه فسل سيفه ، فقال : « هذا نسبي » ثم نثر عليهم الذهب وقال :
« وهذا حسبي » وقنع منه الحاضرون بما سمعوه وشهدوه

وظاهر بغير عناء ان الوثيقة العباسية لا قيمة لها من الوجهة التاريخية ،
لأن الذين وقعوها من الاشراف العارفين بالأنساب قد آكروها على
توقيعها ، ومن وقعها غيرهم من فقهاء القصر والحاشية لم يكن أحد منهم
حجة في مسائل النسب والتاريخ ، وقد أضعفوا دعواهم غاية الضعف
بنسبة جد الفاطميين الى ديسان الثنوي وهو من أبناء القرن الثالث
للميلاد ذهب الى التوفيق بين المسيحية والزردشتية قبل البعثة الاسلامية
بنحو أربعة قرون ، ولم يظهر أحد بهذا الاسم على عهد العباسيين غير من
يسميه المؤرخون حينا بديدان وحينا بزندان أو دندنان ولا شأن له بنشأة
الثنوية ولا بالدعوة اليها في قول أحد من أولئك المؤرخين ، وانما قيل
عنه انه كان على ثروة كبيرة وعاون اسحاق بن ابراهيم بن مصعب على
الثورة في عهد الخليفة المأمون

وادعاء الموقعين للوثيقة ان خلفاء الفاطميين أباحوا المحرمات واستحلوا
الموبقات لم يقيم عليه دليل قط من وقائع التاريخ ، بل ثبت من هذه
الوقائع أن بعض هؤلاء الخلفاء اكتفى بزوجة واحدة ولم يبح لنفسه
ما كان يباح في قصور الخلفاء من التسرى واقتناء الاماء ، وقد خولط
الحاكم بأمر الله في عقله فجرح الى التنطس في الطعام وحرم المباح منه بدلا
من اباحة الحرام ! ..

ولعله لا يخفى على أحد من النظرة الأولى قصة التبشيع والتشنيع في
نسبة الفاطميين تارة الى المجوس وتارة الى اليهود ، فكأنه لا يكفي ان
تسقط دعواهم في الخلافة حتى تسقط دعواهم في الاسلام وترجع

نسبتهم الى أبعد الملل عن الديانة الاسلامية في عرف ذلك العصر على الخصوص ، ثم يقال عنهم ما لا يقال في جميع المجوس واليهود من استباحة المحرمات والتهافت على الشهوات

والقصة التي رويت عن سيف المعز وذهبه غنية عن التكذيب ، لأن ابن طباطبا الذي قيل انه سأل المعز عن نسبه عند وصوله الى مصر قد توفي قبل مقدم المعز اليها بأربع عشرة سنة ، وابن خلكان صاحب القصة هو الذي ذكر تاريخ وفاته فلم يكذب القصة بل قال : لعله أمير آخر ... مع ان اسم « المعز » هو الذي دار عليه مثل السيف والذهب المشهور ، وليس من المعقول بأية حال أن يقيم الفاطميون دعواهم على النسب ثم يعجزون عن ذكر هذا النسب حين يسألون عنه ، فكل جواب أيسر وأنفع من الجواب الذي وضعوه على لسان المعز لدين الله ولا معنى له الا الاعتراف الصريح بأنه مدخول النسب دعى في الخلافة ..

وقد روى ابن خلكان أيضا ان العزيز بالله سعد المنبر فوجد فيه ورقة كتبت عليها هذه الأبيات :

انا سمعنا نسبا منكرا

يتلى على المنبر في الجامع

إن كنت فيما تدعى صادقا

فاذكر أبا بعد الأب الرابع

وان ترد تحقيق ما قلتـه

فانسب لنا نفسك كالطائع

أو فدع الأنساب مستورة

وادخل بنا في النسب الواسع

فان أنساب بنى هاشم

يقصر عنها طمع الطامع

فان صحت هذه الرواية فالتحدى فيها باظهار النسب قبل الأب الرابع صادر من خير بموضع الخلاف ، لأن تاريخ النسب قبل الأب الرابع يوافق

التاريخ الذي عمد فيه الأئمة العلويون الى الاختفاء والتنكر بأسماء غير أسمائهم واثتمان الدعاة دون غيرهم على أسرار ذريتهم وأولياء عهودهم ، وانما المجيب في الأمر أن يكون العزيز بالله هو الذي يتحداه المتحدى باظهار نسب كنسب « الطائع » العباسي ، مع أن الطائع نفسه قد علم بكتابة وزيره عضد الدولة الى العزيز وحمله الهدايا اليه واعترافه بنسبه وانه تلقى منه الشكر « لاخلاصه في ولاء أمير المؤمنين ومودته ومعرفته نحو امامته ومحبته لآبائه الطاهرين »

وقد تواتر ان عضد الدولة هم بالخطبة في بغداد للخلفاء الفاطميين فرده أحد الدهاة من أصحابه عن هذا العزم وقال له : « انك مع خليفة تعتقد أنت وأصحابك انه ليس من أهل الخلافة ولو أمرتهم بقتله لقتلوه مستحطين دمه ، ولكنك اذا أقمت علويا في الخلافة كان معك من تعتقد انت وأصحابك صحة خلافته ، فلو أمرهم بقتلك لاستحلوا دمك وقتلوك .. »

وقد أشار صاحب « الروضتين في أخبار الدولتين » الى قيام الدولة الأيوبية بعد الدولة الفاطمية ولكنه يعلم ان صلاح الدين الأيوبي أذن بالخطبة في يوم انجبة للخليفة الفاطمي ، وانه انما حوّل الخطبة الى الخليفة العباسي بعد وفاة اماضد آخر خلفاء الفاطميين ، وانه أطاع في ذلك أمر رئيسه نور الدين بن زنكي ، ولم يكن لصحة النسب أو بطلانه شأن في هذا التغيير ، ومرجه الأهم الى الخلاف بين مذهب الشيعة ومذهب أهل السنة ، اذ كان الأيوبيون سنيين يشتدون في اتباع مذهب أهل السنة ، وزادهم فيه شدة ما كان بين الكرد والديلم من النفور والنزاع ، وكان الديلم شيعيين والكرد سنيين ، وقد تفاقم النزاع بين رؤسائهم حتى سرى الى الألقاب ، فكان بنو بويه من الديلم يتلقبون بألقاب معز الدولة وركن الدولة وعضد الدولة ، وكان الأيوبيون من الكرد يتلقبون بألقاب نجم الدين وعماد الدين وصلاح الدين

ومما يلاحظ أن بعض المؤرخين يحلون على البعد في كتابتهم عن الدعوة الفاطمية ودعاتها كلما خلطوا بين هذه الدعوة والدعوة الباطنية ،

فأبو المعالي الفارسي يقول في كتابه « بيان الإديان » ان ميمونا القداح من مصر ، وجملة المؤرخين يقولون عنه انه من فارس ، وكل منهم يحيل الى المكان البعيد حيث يتعذر عليه تحقيق الرواية بالسند الصادق في مكان قريب ..

وصح من أجل هذا قول ابن خلدون ان شهادة الشاهدين بالطعن في نسب القوم كانت على السماع ، وأصاب المقرئى حين قال عن العلويين انهم « على غاية من وفور العدد وجلال القدر عند الشيعة فما الحامل لشيعتهم على الاعراض عنهم والدعاء لابن مجوسى أو لابن يهودى ؟ هذا ما لا يفعله مخلوق ولو بلغ الغاية في الجهل والسخف »

والمقرئى وابن خلدون قد أرخا للمهدى الفاطمى بعد عهده بزمان طويل - وهما سنيان غير متشيعين - ولكنهما نظرا في مطاعن أعدائه نظرة المؤرخ المحقق فلم يجدا فيها حجة مقبولة وقامت عندهما حجة النسب الصحيح مقام التغليب والترجيح ، وقد عاصر المهدى مؤرخ أندلسى - هو عرب بن سعد - وكان ممن يوالون الأمويين فلم يقدح في نسب الرجل ولم يسمع من أمراء أمية فى الأندلس قدحا فيه

وغاية ما تنتهى اليه فى هذه المسألة - مسألة النسب الفاطمى - ان المطاعن لم تمسسه بدليل واحد يعول عليه ، وان مطاردة عبيد الله عند اتجاهه الى المغرب دليل على ان العباسيين أنفسهم كانوا يخشون دعوته ، وان مبايعة الشيعة لأبنائه - سواء شيعة الديلم فى بغداد أو شيعة الزيديين خاصة فى اليمن - ترجح صدق اتسابهم الى السيدة فاطمة الزهراء ان لم تؤكد كل التوكيد ، وقد كانت دعوى المنكرين عليهم كما قدمنا فى صدر هذا الفصل أضعف الدعوات لأنها الدعوى المنتظرة التى تمليها البواعث المتعددة ولا يتخيل أحد أن يتصدى الفاطميون لطلب الخلافة بحق ذلك النسب ثم لا يتعرضون لانكاره عليهم ما وسع المنكرين أن ينكروه ..

الباطنية

كان المنتفعون بالطعن في نسب الفاطميين كثيرين متعددين ، كلهم كما تقدم من ذوى السلطان أو أتباع ذوى السلطان ، وقد استعانوا بالحول والحيلة في ترويج مطاعنهم واختراع أقاويلهم فاستمالوا اليهم في البلاد الاسلامية من لا مصلحة له في مطاعنهم ، ولكننا نحسب - بعد مراجعة أخبار العصر وحوادثه - ان المطاعن في النسب لم تكسب من المصدقين الا القليل الذين ينظرون الى الأمر كله بغير اكتراث أو يكثرثون له ولكنهم عيال على الحوادث لا يقدمون ولا يؤخرون . أما الأثر البالغ في تنفير الناس من الفاطميين فانما جاء من ربط الحركة الفاطمية بالحركة الباطنية وادعاء الخصوم ان الباطنيين جميعا اسماعيليون ممن ينتمون الى اسماعيل ابن جعفر الصادق جد القائمين بالدعوة الفاطمية

فمن زمن والناس في المشرق يفهمون ان الاسماعيلية هي كلمة مرادفة للباطنية ، ويلصقون بالاسماعيلية كل ما لصق بالباطنية من المساوىء والمنكرات ، ومن الفضائح والقبائح ، وهي في الواقع كثيرة منفرة لا تحتاج الى جهد كبير في التنفير والتشهير

وساعد على لصوق التهمة بالفاطميين ان بعض المجاهرين بالاباحة والاجترار على مناسك الدين الاسلامي كالقرامطة في البحرين كانوا يعلنون التشيع للاسماعيليين ، أو بعبارة أخرى للفاطميين ، فوفر في الأذهان ان دعاة الاسماعيلية جميعا اباحيون ، وان الباطنية هي اخفاء المنكرات واعلان التشيع للتغريز والتضليل

وقد قيل ان رجلا من دعاة الباطنية يدعى « على بن فضل » ادعى النبوة وأباح جميع المحرمات وقال شاعره في روايات مختلفة :

خذى الدف يا هذه والعبي
وغنى هزاريك ثم اطربي
تولى نبي بنى هاشم
وهذا فبي بنى يسرب
أحل البنات مع الأمها
ت، ومن فضله زاد حل الصبي
وقد حط عنا فروض الصلا
ة وحط الصيام فلم يتعب
إذا الناس صلوا فلا تنهض
وان صوموا فكلوا واشربوا
ولا تطلب السعي عند الصفا
ولا زورة القبر في يثرب
ولا تمنى نفسك المرس
ين من الأقربين أو الأجنبي
فكيف حلت لهذا القر
يب وصرت محرمة للأب
أليس الفراس لمن ربه
ورواه في الزمن المجلد

وقيل على الجملة ان الباطنيين يظهرون الاسلام ليكيدوا له ويدسثوا
عقائد الشرك والضلال بين أهله ، وانهم في الأصل مجوس منطوون على
نفذ شديد للعرب ودينهم لم يقدروا على هدم هذا الدين وتقويض دولة
العرب بالقوة فاحتالوا على ما ربههم بالدسيمة والمكيدة ، وأنشأوا نحلتهن
لاستدراج المسلمين وتحويلهم شيئا فشيئا من عقائدهم الى التعطيل
والاباحة والكفر بالبعث والمعاد وانكار الفرائض والعقائد والأديان
قالوا : وان الاسماعيلية خاصة يثبون دعوتهم على درجات ويأخذون
المواثيق والايمان على مريدتهم ألا يفشوا لهم سرا ولا يظاهروا عليهم

أحدا ، ثم يتدرجون بهم من التشكيك وطلب المزيد من العلم على أيدي الأئمة المعصومين ثم تلقين بعض الرموز التي تروق المرید وتشوقه الى المزيد من الأسرار ثم تعريفه بنظام الدعوة ومن يتولاها ثم تأويل النصوص وتحريف الألفاظ على ظواهر معانيها ثم الخوض في المذاهب الفلسفية التي تنتهي في الدرجة التاسعة من درجات الكشف والزلفى الى تأليه الامام على مذهب الطول ، وانه هو روح الله قد حلت في جسد انسان ، ولعمري ماذا في وسع عشرة أو عشرين من « الواصلين » الى هذه الدرجة في أرذل العمر أن يصنعوه حين يعلمون سرا باباحة الشهوات ورفض الأديان ؟ ! وآفة الباحثين في هذه الألفاظ والاشاعات أنهم جعلوها كلها مسألة أخبار وروايات وراحوا يعتنون أنفسهم في جمع هذه الأخبار والروايات فاذا هي تتناقض ولا تستقر على قرار

هؤلاء المؤرخون الورقيون أو الحرفيون لا يصلحون لبحث هذه المسائل التي يبدأ البحث الصحيح فيها وينتهي في السرية الانسانية وما يجوز فيها وما لايجوز ، وما يعقل وما لايعقل ، وما يستحق أن يعارض على الأوراق والنصوص وما يجب أن يرفض بداهة ، فلا يطول البحث فيه بعد ذلك الا لتطبيق أصول النقد واتخاذ الأمثلة على حقائق التاريخ وأباطيله كما تعرضها عليها الأخبار والروايات فمن الطريف حقا أن يقيّد المریدون بالايمان والأقسام ليكتنوا السر ثم يأتي السر المكتوم فاذا هو سر يحلهم من جميع تلك الايمان والأقسام على سبيل اليقين ولا يضمن تقلهم الى يقين جديد !

وأطرف منه أن يقال عن رجل انه معطل منكر للمعاد منكر للأديان ، منكر للوعد الالهية ثم يقال عنه ان كراهة دين من الأديان تبعته الى الجهاد سرا وعلانية والاستماتة في الجهاد حتى يتعرض للقتل والتشريد أملا في يوم من الأيام يزول فيه هذا الدين ويشهد هو زواله أو لا يشهد بعد سنوات أو بعد أحقاب وقرون

افما يعمل هذا العمل لهدم دين من الأديان من يؤمن بدين غيره ويعمل لقيام دولة من أبناء دينه ، فأما المنكر الممثل لكل غفيدة فلن يبقى في نفسه من الحماسة الروحية ما يهون عليه المشقة والخطر ويقيمه ويقعده كراهة لدين هو وغيره من الأديان عنده سواء

كان تصديق هذا مفهوما في القرون الوسطى ، لأنهم كانوا يومئذ يعتقدون أن الكافر يكفر في سبيل الشيطان وانه يرى الشيطان بعينه ويسمع وسواسه بأذنه ويساومه ويشارطه ويبيعه روحه ويأخذ منه السطوة والمتعة بديلا من نعيم السماء ، وكانوا يومئذ يقولون عن أناس بأعيانهم أنهم على صلة بالشيطان وأنهم تعلموا على يديه السحر الأسود واطلعوا منه على أسرار النجوم والرجوم واستهواهم مكره ففقدوا معه صفقة المغبون في حساب المؤمنين

أما في عصرنا هذا فمن العسير أن يتخيل الانسان ملحدا ينكر كل شيء ويتجرد لأهوال الدعوة الباطنية لأجل شيء من الأشياء كائنا ما كان ، الا أن يكون ذلك الشيء سطوة يطلبها لنفسه في حياته أو في بيته ، ولا يعقل حينئذ أنه يتدرج بالاتباع المريدين من الجهل بحقيقته الى العلم بتلك الحقيقة والاطلاع على دسائسه وغواياته التي يلبسها على الناس بتبليس من ألقاز العقائد وأسرار الديانات

وقد شغلت طائفة من المؤرخين الأقدمين والمحدثين بدعوة القرامطة وأشباهمهم في اليمن وفارس وادعائهم النسبة الى الاسماعيلية في المغرب مع مجاهرهم بالمعاصي واجترائهم على مناسك الحج وتمثيلهم بالحجاج من الرجال والنساء ، فخطر لهذه الطائفة من المؤرخين أن علاقة النسب بين القرامطة والاسماعيليين جد يحتمل البحث ويؤدي البحث فيه الى ثبوت العلاقة بين هؤلاء وهؤلاء ..

وأغرب الغرائب أن أحدا من أولئك المؤرخين لم يخطر له أن يسأل : لماذا لم يظهر في المغرب حيث تقوم الدولة الفاطمية كلها أناس من دعاة الاباحية والعصيان ، كالذين ظهروا في البحرين واليمن وفارس وبعض

بقاع الشام ؟ ..

فمن نظرة سريعة يمكن أن يتبين الناظر في التاريخ أن الانتماء الى الاسماعيليين مفهوم من أناس يقيمون في بلاد الدولة العباسية ويعلمون الخروج عليها ، فهم في حاجة الى سلطان مشروع يقاومون به سلطانها المخلوع ، وانشأوهم الى الفاطميين أو الاسماعيليين هو السند الذي يركنون اليه في محاربة الدولة العباسية وانكار حقها في الطاعة والولاء ، ولو كان نشر الدعوة الفاطمية يتولاه دعاة العصيان والمعاصي لكان أولى البلاد أن تظهر فيه طوائف الاباحة هي بلاد المغرب حيث دان القوم لخلافة الفاطميين ..

ولقد حدث فعلا أن القرامطة خلقوا البيعة الفاطمية ورجعوا الى الدعاء على المنابر باسم الخليفة العباسي حين وقعت النبوة بينهم وبين الخليفة الفاطمي في القاهرة ، وسئل لهم الطمع انهم قادرون على فتح مصر بعد أن جربوا قوتهم وحيلتهم في فتح أطراف من بلاد الشام وقد يكون أغرب من هذا أن يقال من جهة أن الاباحة هي الدرجة السابعة أو الثامنة التي يصل اليها المريد المترقى في كشف الحجب وعلم الأسرار ، ثم يقال من جهة أخرى أن هذه الاباحة سر مباح في الطريق يعكف عليه المؤمن جهرة ويردده الشعراء ويتغنى به القيان ..

لم ينفصل علم النفس وعلم التاريخ في بحث من البحوث كما انفصلا في بحث قضية الاسماعيلية والباطنية ، ولهذا كثر فيه التخبط وقل فيه الثبوت والوضوح ، ونحسب أن محنة التاريخ هنا أصعب من كل محنة لأن المؤرخ هنا يعمل عمليين ولا يستقل بعمل واحد : يعمل لمعرفة الحقيقة ويعمل لاستخلاصها من الأباطيل التي تحجبها عن عمد وتدير ، وواحد من هذين العملين كثير على مؤرخي الورق والحروف

اتنا عرفنا ألوانا من النظم السرية التي اصطلحت عليها الجماعات المتسترة في العصور القديمة ، وبعضها ديني يتخذ له أغراضا سياسية

كالجماعات الأورفية والجماعات الفيثاغورية ، ولا ندرى الان كيف
تكشفت هذه النظم المزعومة ، بل لاندري هل هى فى الحق كانت موجودة
متبعة أو هى أوهام وتخمينات من وحي الاستطلاع والاستنباط

ولكننا اذا سمعنا عن نظم سرية فى عصور التاريخ القريب فلا معنى
فى هذه الحالة للإحالة على القدم أو للخبط فى الظنون ، اذ يحق لنا فى
هذه الحالة أن نسأل عن المريد الذى تدرج فى مراتب الباطنية حتى وصل
الى قيادة الدعوة ثم خانها وأفشى أسرارها ، أو يحق لنا أن نسأل عن
الحاكم الذى تعقب الجماعة بعيونه وجواسيسه حتى كشف عن بواطنها ،
أو يحق لنا أن نسأل عن الأوراق المطوية التى نشرت بعد العثور عليها فى
إبانها أو بعد انقضاء زمانها ، ولسنا نذكر فيما اطلعنا عليه من أخبار
الباطنية أن أحدا تحدث عن مريد واحد صعد على مراتبها من درجة
التلميذ المبتدىء الى درجة الحجة المطلع على جميع خفاياها ، ولا ان أوراقا
لها فصلت فيها نظمها وأسرارها وأذيعت فى أوانها أو بعد أوانها ، بل زعم
الرواة أن الذى فضح الجماعة وأنكر على جعفر الصادق نفسه دعواه
قبل دعوى اسماعيل ابنه وخلفائه هو عبد الله بن ميمون القداح ، ومن
هو عبد الله بن ميمون القداح ؟ هو واضع النظام كله ومرتب الدرجات
كلها ومصطنع التخفى والتنكر لبلوغ مقصده من الدعوة باسم اسماعيل
ابن جعفر الصادق جد الامامين أجمعين !..

فعبد الله هذا هو الذى قال فيما زعم الرواة :

هات اسقنى الخمرة يا سنبر

فليس عندى انى أنشر

أما ترى الشيعة فى فتنة

يفرأها عن دينها جعفر

قد كنت مغرورا به برهة

ثم بدا لى خبر يستر

ولم تكفه قطعة واحدة ينظمها حتى نقل عنه الرواة قطعة أخرى يقول فيها .

مشيت الى جعفر حبة
فألفيته خادعا يخلب
يجر الملاء الى نفسه
وكل الى حبله يجذب
فلو كان أمركم صادقا
لما ظل مقتولكم يسحب
ولا غض منكم عتيق ولا
سما « عمر » فوقكم يخطب

وما كانت خلافة عمر، ولا أبناء القتلى من آل فاطمة وعلى ، سرا مجهولا قبل الياذ بالإمام جعفر والمبايعة له ولبنيه ، ولأحدث بعد العلم بهذه الأسرار وغيرها أنه عدل عن الدعوة الاسماعيلية فيما تواترت به أخباره في المشرق والمغرب ، فما زالت دعوة القداح الى ختام حياته قائمة على المبايعة بالخلافة لاسماعيل وأبناء اسماعيل

وعلى هذا النحو يتبع المؤرخ ما شاء من أخبار الباطنية فلا يمضى مع خبر منها خطوة أو خطوتين حتى يصطدم بالعقل أو بالواقع صدمة توجب الشك ان لم تجزم باليقين من بطلان الخبر وتلفيقه . وخير من هذه « الورقيات والنصيات » أن نطمئن الى مقياس واحد لا شبهة عليه من أهواء السياسة ثم نعرض عليه الأخبار مما يوافقه أو لا يوافقه عسى أن نخلص منها الى قول صحيح أو نقد صحيح ذلك المقياس هو الحالة النفسية الاجتماعية التي كانت شائعة في العالم الاسلامي من القرن الثالث الى القرن الخامس للهجرة ، ونخصص منها بالنظر ما يرجع الى مطالب الحكم من جهة ومساعي التكتم والمداورة من جهة أخرى ..

فالدولة العباسية دخلت في دور الضعف والتفكك منذ أواخر القرن الثالث للهجرة ، فاختلت قواعد الحكم وضاعت الثقة في الحكومة القائمة وكثر المنفصلون عن الدولة والمتنقضون عليها ، وكان الدين هو حجة المطالبين بالحكم وحجة الخارجين عليه . فمن خرج على بنى العباس أنكر عليهم حق الخلافة باسم النبي مع وجود عترة النبي من أبناء علي وفاطمة ، ومن اعترف لبنى العباس بالحق الشرعى في الخلافة زعم أن الحكم في دولتهم لغيرهم من وزراء الترك أو الديلم أو كتاب الدواوين الذين يتواطأون مع الولاة على انتهاب الأموال وبذلها للصنائع والأعوان ، وأصبح دهماء الشعب على استعداد لانكار الخلافة على القائميين بها والاستسلام للادعاء الوائين عليها ، وتتابع المنتحلون للمعاذير الدينية في طلب الحكم أو عصيان الحاكمين من المعتصمين أو المستضعفين

وفي تاريخ شاعر مشهور بالطموح مثال لادعاء الحكم باسم الدين مرة وباسم الكتابة والأدب مرة أخرى أو مرات ، ذلك الشاعر هو أبو الطيب المتنبي الذى نسب في بعض الروايات باسم أحمد بن الحسين بن الحسن ونشأ بين العلويين في الكوفة . فانه ادعى النبوة أو المهديّة في بادية السماوة وبلغ من تفاقم دعوته أن خافه والى حمص من قبل الاخشيد فاعتقله ولم يطلقه الا وقد عدل عن دعواه ، ومن أحاديث المعجزات التى طولب بها كما جاء في رسالة الغفران انهم قالوا له في بنى عدى : « هاهنا فاقة صعبة فان قدرت على ركوبها أقرنا انك مرسل . فمضى الى تلك الناقة وهى رائحة في الابل وتحيل حتى وثب على ظهرها ، فنفرت ساعة وتنكرت برهة ، ثم سكن نفارها ومشت مشى المسححة وورد بها الحلة وهو راكب عليها فمجبوا له كل العجب وصار ذلك من دلائله عندهم »

قال أبو العلاء بعد ذلك : « وحدثت أيضا أنه كان في ديوان اللاذقية وأن بعض الكتب انقلبت على يده سكين الأقلام فجرحته جرحا مفرطا ، وأن أبا الطيب تقل عليها من ريقه وشده عليها غير متظفر لوقتة وقال للمجروح لا تحلها في يومك ، وعد له أياما وليالى ... فبرى الجرح

فصاروا يعتقدون في أبي الطيب أعظم اعتقاه ، ويقولون انه كمحبي
الأموات .. وحدث رجل كان أبو الطيب قد استخفى عنده في اللاذقية ،
أو في غيرها من السواحل ، انه أراد الانتقال من موضع الى موضع
فخرج بالليل ومعه ذلك الرجل ، ولقيهما كلب ألح عليهما في النباح ،
ثم انصرف فقال أبو الطيب لذلك الرجل وهو عائد : انك ستجد ذلك
الكلب قد مات ، فلما عاد الرجل ألقى الأمر كما ذكر .. »

وقد كانت دعوى النبوة أو المهدية في عنوان شباب أبي الطيب ،
فلما أوفى على الشيخوخة كان قد عدل زمنا عن دعواه ولم يعدل عن طلب
الولاية بنريعة الأدب والكتابة ، وأطمعه فيها أن كافوراً الذي طلب منه
الولاية كان خصيا مملوكا فاستبد بالعرش وأصبح فيما زعم : « دون الله
يعبد في مصر .. ! »

قال داعي الدعاة يصف حال الناس في تلك الأزمنة من كتاب أرسله
الى أبي العلاء المعري : « ... اننى شققت بطن الأرض من أقصى ديارى
الى مصر وشاهدت الناس بين رجلين : اما منتحلا لثريعة صبأ اليه
ولهج بها الى الحد الذى ان قيل له من أخبار شرعه ان فيلا طار أو جملا
باض لما قابله الا بالقبول والتصديق ، ولكان يكفر من يرى غير رأيه فيه
ويسفه ويلعنه ، فالعقل عند من هذه سبيله في مهواة ومضيعة .. أو منتحلا
للعقل يقول انه حجة الله تعالى على عباده ، مبطلا لجميع ما الناس فيه ،
مستغفا بأوضاع الشرائع ، معترفا مع ذلك بوجوب المساعدة عليها وعظم
المنفعة بمكائها ، لكونها مقبلة للجاهلين ، ولجأما على رؤوس المجرمين
المجازفين ، لا على أنها ذخيرة للعقبى أو منجاة في الدار الأخرى . فلما
رمت بى المرامى الى ديار الشام ومصر سمعت عن الشيخ ، وفقه الله ،
بفضل في الأدب والعلم قد اتفقت عليه الأقاويل ووضح به البرهان
والدليل ، ورأيت الناس فيما يتعلق بدينه مختلفين ، وفي أمره متبليين ،
فكل يذهب فيه مذهبا ويتبعه من تقاسيم الظنون سببا ، وحضرت مجلسا
جليلا أجرى فيه ذكره فقال الحاضرون فيه غثا وسينا ، فحفظته بالغيب ،

وقلت ان المعلوم من صلابته في زهده يحويه من الظنة والريب ، وقام في نفسي أن عنده من حقائق دين الله سرا قد أسبل عليه من التقية سترا ، وأمرنا تميز به عن قوم يكفر بعضهم بعضا ويلعن بعضهم بعضا ، ولما سمعت البيت :

غدوت مريض الدين والعقل فالقنى
لتسمع أنباء الأمور الصحائح

وثقت من خلدي فيما حدثت عقوده ، وتأكدت عهوده ، وقلت : ان لنا ما نستطيع بمثل هذه الدعوى نطقا ، ويفتق من هذا العظيم رتقا ، للسان صامت عنده كل ناطق ، وناطق من ذروة جبل من العلم شاهق ، فقصدته قصد موسى عليه السلام للطور اقتبس منه نارا ، وأحاول أن أرفع بالفخر منارا ، بمعرفة ماتخلف عن معرفته المتخلفون واختلف في حقيقته المختلفون .. »

وداعى الدعاة صاحب هذا الخطاب هو « أبو نصر هبة الله ابن موسى ابن أبي عمران » صاحب أكبر منصب من مناصب الدعوة في الدولة الفاطمية ، كتب رسائله الى حكيم المعرة يناقشه في تحريمه اللحوم على نفسه ويسأله عن البعث والقيامة ، مستغظا على المتقولين أن يتهموا بإنكارهما حكيمًا كأبي العلاء ، وقد استعار من اسمه « موسى بن أبي عمران » تفسيراً لوقوفه من رهين المحبسين موقف المقتبس من نار الطور وعلى ذكر أبي العلاء واعتقاد الناس في أسرار الحكمة وقوتها الخفية تنقل مارواه ابن الوردي حيث ذكر في تاريخه « ان حساده أغروا به وزير حلب فجهز لاحتضاره خمسين فارساً ليقتله ، فأنزلهم أبو العلاء في مجلس له بالمعرة واجتمع بنوعه وتألموا لذلك فقال : ان لى ربا يمنعنى ، ثم قال كلاماً منه مالا يفهم ، وقال : الضيوف الضيوف . الوزير وزير . فوقع المجلس على الخسنيين فارساً فماتوا ووقع الحمام على الوزير بحلب فمات ، فمن الناس من زعم أنه قتلهم بدعائه وتهجده ، ومنهم من زعم أنه قتلهم بسحره ورصده »

وروى صاحب الكوكب الثاقب هذه القصة بزيادة تفصيل فذكر عن الغزالي أنه قال : « حدثني يوسف بن علي بأرض الهركار قال : دخلت معرة النعمان وقد وشى وزير محمود بن صالح صاحب حلب اليه بأن المعري زنديق لا يرى افساد الصور ويزعم أن الرسالة تحصل بصفاء العقل ، فأمر محمود بحمله اليه من المعرة وبعث خمسين فارسا ليحملوه ، فأنزلهم أبو العلاء دار الضيافة ، فدخل عليه عمه مسلم بن سليمان وقال له : يا ابن أخي ! قد نزلت بنا هذه الحادثة ، والمملك محمود يطلبك ، فإن منعناك عجزنا وإن أسلمناك كان عارا علينا عند ذوى الذمام ويركب تنوخ الذل والعار ، فقال : هون عليك ياعم ولا بأس عليك ، فلى سلطان يدب عنى . ثم قام فاغتسل وصلى الى نصف الليل ، ثم قال لعلامة : انظر الى المريخ أين هو » فقال : فى منزلة كذا وكذا ، فقال : زنه واضرب تحته وتدا ، وشد فى رجلى خيطا واربطه الى الوتد ، ففعل غلامه ذلك ، فسمعناه وهو يقول : يا قديم الأزل ! يا علة العلل ! يا صانع المخلوقات ! وموجد الموجودات ! أنا فى عزك الذى لا يرام وكنفك الذى لا يضام ، الضيوف الضيوف .. الوزير الوزير .. ثم ذكر كلمات لا تفهم ، وإذا بهذة عظيمة فسأل عنها فقيل : وقعت الدار على الضيوف الذين كانوا بها فقتلت الخمسين ، وعند طلوع الشمس وقعت بطاقة من حلب على جناح طائر ألا تزعجوا الشيخ فقد وقع الحمام على الوزير . قال يوسف ابن على : فلما شاهدت ذلك دخلت على المعري فقال : من أين أنت ؟ فقلت : من أرض الهركار . فقال : زعموا أنتى زنديق ، ثم قال : اكتب . وأملى على أبياتا من قصيدة أولها :

أستغفر الله فى أمنى وأوجالى

من غفلتى وتوالى سوء أعمالى (١)

هذه الحالة النفسية التى عمت أرجاء العالم الاسلامى فى القرن الرابع خاصة خليفة أن ينجم فيها عشرات ممن يستهونون الناس بالأسرار الباطنة ، لأن عالم الباطن مستودع كل أمنية وبغية كل طالب : طالب

(١) كتاب ابو العلاء المعري للمرحوم « أحمد تيمور باشا »

الدين وطالب الدنيا ، طالب المعرفة وطالب السحر والعيافة ، أو طالب العلم الأبيض وطالب العلم الأسود ، وخلق أن يقف النظر طويلا عند قول داعى الدعاة أنه يطلب سرا من أبى العلاء ، وانه قام فى نفسه أن عند أبى العلاء « من حقائق دين الله سرا قد أسبل عليه من التقية سترا » . فانه قد يكون فى هذا القول مادحا أو مازحا ولكنه أبان عن سمة العصر كله من « الباطنية » التى يفرضها على نفسه العارف بأسرار الدين ...

وأخلق من هذا أن يستوقف النظر أن هذا الكلام صادر من داعى الدعاة فى الدولة الفاطمية ، وهو الرجل الذى ينتهى اليه كل سر ، ويصل اليه التلميذ بعد درجات ليسمع منه - فيما زعم الزاعمون - ان الدين لغو وان القيامة وهم وان المحرمات مستباحة للعارفين ، فلو كانت هذه رسالته التى ينتهى اليها كل متقدم فى درجات الأسرار فما حاجته الى محاسبة أبى العلاء على الظنون التى تذاع عنه فى أمر الحلال والحرام وأمر البعث والحساب ؟ لقد كان الرضى عن مذاهب الزندقة جميعا أولى به من التعرض لذويها ومحاسبتهم عليها ، فانهم يتبرعون بما يجتهد له ويرتب المراتب ويحتال الحيل للوصول اليه ، بعد طول العناء

الا أن الخلاصة الثابتة فى ذلك العصر أن « الباطنية » الواقعية حالة من الحالات التى لا تستغرب من دعائه المخلصين وأدعيائه المعرضين ، فهناك « باطنية » يفرضها الناس على أنفسهم قبل أن يفرضها عليهم نظام مقرر أو مذهب منظم ، وادعاء الأسرار فى تلك البيئة أمر منتظر مترقب لا غرابة فيه ، وأقرب ما يكون هذا الادعاء الى من يطلب المنفعة لنفسه أو يطلب المكاة بما يعلمه ويتعلمه منه غيره ، وفاقا لشرطه وتدييره

وقد صار المجتمع الاسلامى الى تلك الحالة فى القرن الرابع وما تلاه بعد تمهيدات متلاحقة بعضها من فعل السياسة وبعضها من فعل الثقافة والعادة المستحدثة ..

فأما التمهيدات التى هى من فعل السياسة فهى ما أسلفناه من تزعزع الثقة بحق السلطان القائم على اختلاف الحاكمين والحكومات ، وأما التمهيدات التى هى من فعل الثقافة والعادة المستحدثة فهى انتشار الفلسفة

ونشأة البحوث العقلية في علوم الدين ومنها علم الكلام والتوحيد ، ومنها اقتباس الحضارات الغريبة وانقسام الأمر فيها بين المحافظة والتجديد والاسترسال مع العرف الطارىء في غير بحث ولا مبالاة وقد كان أنصار السلطان القائم محافظين لأنهم يفضون التغيير ويحافظون على كل قديم

وقد كان أنصار البحث والاستطلاع أقرب الى التجديد والتغيير . وكانوا مظنة للتهم من أنصار القديم ، فكان من الطبيعي الذي لا غرابة فيه أن يصطنعوا التقية ويظهروا للناس غير ماييظنون ، سواء كانوا من المتصوفة الذين يلتمسون النجاة عند « الواصلين » المتمكنين من بواطن الأسرار ، أو كانوا من الفلاسفة الذين يشفقون من رجعات الظنون ولا يأمنون العامة ولا ذوى السلطان المتوجسين من كل جديد ، أو كانوا من غير المتصوفة والفلاسفة أقواما يعالجون من المعارف ما يشبه السحر والكهانة ، وهى علوم التنجيم والتماس الأسرار عند النجوم

ولم يكن الفارق بين علم النجوم الصحيح وعلم النجوم الزائف قد حسم في ذلك العصر على وجه يمنع اللبس والاختلاط بين المطليين ، فان الفلاسفة الذين كانوا يتحدثون عن العقول العشرة كانوا يربطون بين هذه العقول العشرة وبين الأفلاك ويقولون بغلبة الأرواح النورانية التى لا تقبل الفساد على كواكب السماء وأن الصلة بينها وبين الانسان تتوقف على الرياضة والصفاء ، وقد كان المتصوفة يؤمنون بالتجلى ولا يمنعون أن ينكشف الغطاء عن البصر والبصيرة فتلمح في العالم العلوى ما أودعه الله فيه من الدلائل والاشارات

وإذا كانت « الباطنية الواقعية » قد سولت لشاعر أن يطلب السلطان بدعوى النبوة أو المهديّة ، وقد أوقعت في النفوس ان ناسكا ضريرا يسيطر على الوزراء والجنود بقوة الغيب أو بقوة النجوم ، فمن الخطأ أن يقال ان الباطنية كلها وليدة الدعوة الفاطمية ، وان هذه الدعوة مسئولة عن كل ما كان يستباح يومئذ في الخفاء ، وكل ما تذرعه به الظالمون في الحكم من ذرائع الدنيا والدين ..

الباطنية الفاطمية

وكانت للفاطميين على هذا باطنية فاطمية أو اسماعيلية ، الى جانب هذه الباطنية الواقعية ..

لم يرق الدليل على انتماء الباطنية الفاطمية أو الاسماعيلية الى داعية من المجوس أو اليهود دبرها تدييرا ولفقها تلفيقا لهدم الاسلام خاصة وهدم الديانات عامة ، وتلقين « الواصلين » دروس الكفر والتعطيل وانكار البعث والحساب واستباحة المحرمات والمنكرات ، كراهة للعرب ودولتهم ، واتقاما منهم بالدسيسة وقد عجزوا عن الانتقام منهم بالقهر والعدوان ..

فالتهمة ضعيفة لأنها جاءت من مفرضين غرضهم معروف ، وهي ضعيفة بعد هذا لأنها مضطربة متناقضة لا تثبت على زعم واحد ولا تستقيم على وجهة واحدة . فأصل الدعوة تارة من المجوس وتارة من اليهود ، ومرة يرجع أصلها الى ديسان الذي ظهر قبل الاسلام ، ومرة أخرى يرجع الى ابن القداح الذي يتبين من شعره أنه مسلم وأنه شك في الامام جعفر بعد أن لاذ به وتلمذ عليه ، لأن أئمة الشيعة يقتلون وينهزمون

وفي التهمة من الضعف فوق هذا وذاك أنها لا تجرى مجرى المؤلف من طبائع النفوس ، فان الرجل الذي يكفر بالدين عامة لا ملكه الحماسة لهدم دين ولا تبلغ منه هذه الحماسة أن يصبر للجهد الطويل ويستهن بالخطر على الروح والراحة وهو يحارب السلطان ويحارب اجماع الناس من حوله على اختلاف النحل والأديان

ومن المشكوك فيه بعد هذا جميعه أن ينهدم الدين اذا كفر به في كل عصر طائفة من « الواصلين » معدودين على الأصابع يستبيحون المحرمات

في الخفاء على أفراد أو بين زمرة من الأصحاب والنظراء ، فما خلا عصر قط من أمثال هؤلاء بغير دعوة من داع وبغير سعى أو سعاية من ساع ، ولم يزل الشك يتسرب الى آحاد آحاد من الحائرين والمترددین يحفظون شكهم لأنفسهم أو يطلعون عليه أمثالهم وذوى خاصتهم ثم يذهبون والدين باق لم ينهدم بين العلية ولا بين السواد

وربما تشيع للفاطميين أناس خبطوا في العقائد خبط عشواء وجهروا بمذاهب من مذاهب الفلسفة أو التصوف ينكره الاسلام الصحيح ، ولكن التشيع من هذا القبيل قديم لم ينقطع قط من عهد الامام عليه السلام الى عهدنا الذي نحن فيه ، ولم يكن هذا التشيع الممقوت حجة على الامام على ولا على أحد من بنيه الأبرار الذين سمعوا به فأنكروه أو سكتوا عنه ولم يرتضوه ..

ففى حياة الامام على ؑ كان عبد الله بن سبأ وأصحابه يؤلهون عليا ويؤمنون بحياته بعد مقتله ويقولون برجة النبی وينشرون مذهب الطول وتناسخ الأرواح ، وبعد مقتل الامام نشط أصحاب النحلة الكيسانية وأعادوا مثل هذا القول في حياة « محمد بن الحنفية » وقيل عن المختار الثقفى داعية القوم أنه ادعى النبوة ونظم له قرآنا يعارض به القرآن الكريم ويفرضه على صحبه في الصلوات ، ومكان الامام وابنه محمد في الاسلام أرفع من أن يتناول اليه من أجل هذا عدو يلج في عدوانه فضلا عن الولي والصديق ، وقد بقى المرجئون والقائلون بالرجعة والحلول يتمادون في ضلالتهم بعد أن برىء منهم الامام على وعاقبهم بالحرق ، وبعد أن كذبهم ابنه وأعرض عنهم وأقام في الحجاز وتركهم بالعراق يلجون في الادعاء له والادعاء عليه

ولم يخل عصر الامام جعفر الصادق — أبى اسماعيل رأس الاسماعيليين — من داعية يفترى على الأئمة العلويين ، وهم أحياء ، كما فعل أبو الخطاب الأسدى الذى كان يقول بتشخيص الجنة والنار ، وزعم في مبدأ أمره ان أولاد الحسن والحسين أنبياء الله ، ثم زعم أنهم أرباب وأن الامام جعفر اله

يعبد ، فلمنه جعفر الصادق ويرى منه وتقاه . قال أبو منصور البغدادي صاحب كتاب الفرق بين الفرق « فادعى بعد ذلك في نفسه أنه الاله ، وقال أتباعه ان جعفر الاله .. غير ان أبا الخطاب أفضل منه وأفضل من علي ، وجوزوا شهادة الزور على مخالفيهم »

وكان غيرهم كذلك يجوزون شهادة الزور على المخالفين ، ومن شهادة الزور مانخلوه لأصحاب المذاهب من الشيعة والسنين

وقد دعا القرامطة للفاطميين كما دعا عبدالله بن سبأ للإمام عليؑ وكما دعا المختار لابنه محمد بن الحنفية ، فأنكرهم الخليفة الفاطمي حين خرجوا على الدين وأغاروا على الحجاز واعتدوا على الحجاج ، وكتب الخليفة القائم وهو بالمغرب الى داعية القرامطة يقول له : « العجب من كتبك الينا ممتنا علينا بما ارتكبته واجترمته باسمنا من حرم الله وجيرانه بالأماكن التي لم تزل الجاهلية تحرم اراقة الدماء فيها واهانة أهلها ، ثم تعديت ذلك وقلعت الحجر الذي هو يمين الله في الأرض يضافح بها عباده ، وحملت الى أرضك ورجوت أن تشكرك ، فلعنك الله ثم لعنك ، والسلام على من سلم المسلمون من لسانه ويده ! » ..

وعلى خلاف ما قيل عن اباحة المحرمات في المذهب الفاطمي ، ثبت من نصائح أئمة فيهم أنهم كانوا يقصدون في الحلال المباح ويأمرون أتباعهم ومريديهم بالقصد فيه ، وقد أوصى المعز أتباعه من زعماء كتامة بالمغرب فقال عن الزوجات : « الزموا الواحدة التي تكون لكم ولا تشرهوا الى التكثر منهن والرغبة فيهن فيتنفص عيشكم وتعود المضرة عليكم وتنهكوا أبدانكم وتذهب قوتكم وتضعف نحائزكم ، فحسب الرجل الواحد الواحدة .. »

وعلى خلاف دعوى الربوية كان المعز هذا — وهو أعلمهم بالتنجيم — يقول كما روى عنه القاضي النعمان في كتاب المجالس والمسائرات : « من نظر في النجامة ليعلم عدد السنين والحساب ومواقيت الليل والنهار وليعتبر بذلك عظيم قدرة الله جل ذكره وما في ذلك من الدلائل على توحيده لا شريك له فقد أحسن وأصاب ، ومن تعاطى بذلك علم غيب الله والقضاء بما يكون

فقد أساء وأخطأ ..

وكان العزيز كالمز في هذا المعتقد كما قال أخوه تميم في إحدى قصائده:

ولما اختلفنا في النجوم وعلمها
وفي أنها بالنفع والضر قد تجرى
فمن مؤمن منا بها ومكذب
ومن مكثر فيها الجدل وما يدرى
ومن قائل تجرى بسعد وأنص
وتعلم ما يأتي من الخير والشر
فعلمتنا تأويل ذلك كله
بما فيه من سر وما فيه من جهر
عن الطاهر المنصور جدك ناقلا
وكان بها دون البرية ذا خبر
فأخبرتنا أن المنجم كاهن
بما قال ، والكهان من شيعه الكفر
وان جميع الكافرين مصيرهم
الى النار في يوم القيامة والحشر
فجمعتنا بعد اختلاف ومرية
وألفتنا بعد التنافر والزجر
وأوضحت فيها قول حق مبرهن
يجلى ظلام الشك عن كل ذى فكر
فعدنا الى أن الكواكب زينة
وفيها رجوم للشياطين اذ تسرى
مسخرة مضطرة في بروجها
تسير بتدبير الاله على قدر
وان جميع الغيب لله وحده
تبارك من رب ومن صمد وتر

وما علمت منه الأئمة انما

رووه عن المختار جدهم الطاهر

وقد خولط خليفة من خلفاء الفاطميين في عقله - وهو الحاكم بأمر الله - فلم يثبت من تصرفه أنه تلقن من آبائه وأسلافه مذهب الاباحه وادعاء الربوبية ، وانه ورث قوم من اليهود أو المجوس مندسين على الاسلام لفسدوه وينقضوه ، بل ظهر أنه يحرم المباح ويطارد اليهود تارة ويفضى عنهم تارة أخرى على كراهية ونفور ، وانه كان يمنع تقبيل الأرض بين يديه ولا يرضى أن تلمس يدها وركابه ، وأمر ألا يزيد الناس في السلام حين يدخلون اليه على قولهم : « السلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته » ويجوز أن يقال عن هذا الخليفة أنه كان في تخطيطه وتجديفه فريسة المضللين من وزرائه ولايجوز أن يقال انه تولّى العرش وهو يعلم انه يهودى أو مجوسى يستدرج المسلمين الى الكفر والاباحه وانه يهدم دولته ودولة الاسلام كله وفاقا لما تأمر عليه آبائهم وأضرروه

ولم يثبت مع هذا كل ما قيل عن أوامر الحاكم وزواجه وكل ما شاع عن نقائصه وبدواته ، فان التشنيع بالمضحكات والمبالغات مألوف في القاهرة لذلك العهد وما تلاه

وقد وضع كتاب عن « قره قوش » صورته للناس في صورة الطاغية الذى لا يبالى ما يأمر به من المستحيلات والفرائب وغفل الكثيرون عن موضع الفكاهة من تلفيقات الرواة ، فحسبوا كلها لامية فيه ، وتناقلوها وأضافوا اليها ، ولم يزالوا يرددونها على هذا الفهم الخاطيء الى زمن قريب ، وقد كان « قره قوش » على خلاف ما صورته الروايات عنه مثلا في الحزم واصالة الرأي وحسن التدبير

وعند ابن خلدون أن الاختلاق ظاهر فيما ادعوه على الحاكم من الدعاوى الدينية ، وانه كان مضطربا في الجور والعدل والاختافة والأمن والنسك والبدعة ، وأما ما يروى عنه من الكفر ... فغير صحيح ولا يقوئه ذر عقل ، ولو صدر من الحاكم بعض ذلك لقتل لوقته ، وأما مذهبه في الرافضة فمعروف ، ولقد كان مضطربا فيه ، ومع ذلك فكان يأذن لأهل

انسنه من المصريين في صلاة التراويح ثم ينهى عنها «
على أن الأقاويل عن الحاكم - صحت أو لم تصح - إنما تروى عنه
ويعلم رواياتهم يتكلمون عن رجل مخالط في عقله لا يعول له على سر
أو علانية ..

ونحب هنا أن نوضح ما نستبعد نسبته الى الدعوة الفاطمية في صميمها
على حسب ما اتهمنا اليه من الشواهد النفسية والتاريخية
فنحن لا نستبعد أن يكون من الدعاة الفاطميين أناس قد استخرجوا
لأنفسهم من دراساتهم في التصوف أو الفلسفة أو التنجيم مذهباً ينكره
علماء الدين من السنن والشيعة

ولا نستبعد أن يكون منهم أناس خدموا القضية الفاطمية كلها خدمة
لأنفسهم ولصقوا بها كما يلصق طلاب المنافع والنهازون للفرص بكل
دعوة كبيرة تتسع لخدمة المنافع الخاصة مع خدمة المنافع العامة
ولا نستبعد أن يعاب على الدولة الفاطمية ما يعاب على الدول في دور
التأسيس أو في دور الانحلال

ليس شيء من ذلك بعيداً ولا موجب لاستبعاده نظراً الى أحكام العقل
أو شواهد التاريخ ..

ولكن الذي نستبعده ونرى أنه مناقض للواقع وللمألوف من الدواعي
النفسية أن يكون هناك تواطؤ مبيت بين أناس من المعطلين على إنشاء
دولة لهدم الدين الاسلامي والدولة الاسلامية معه ، وأن يشمل هذا
التواطؤ أقواماً في المغرب والمشرق ويدوم من قرن الى قرن قبل نجاح
الدعوة وبعد نجاحها بزمان طويل

هذا هو البعيد عقلاً والبعيد في دعوى المدعين الذين لم يسندوه قط
بدليل يقرب الى العقل ذلك الزعم البعيد

أما ما عدا ذلك من شؤون الدعوة الفاطمية ، أو شؤون الدعوة العلوية
في جملتها فقد سار في التاريخ مطرداً على النهج الذي ينبغي أن يسير عليه
أن الإيمان بالامامة واطلاع الامام على الأسرار التي تخفى على غيره

أمر لازم من لوازم الدعوة العلوية في نشأتها التاريخية
فان المؤمن بحق على وأبنائه في الامامة يسائل نفسه : لم لا ينصره الله
على أدعاء الامامة والخلافة ؟

انه يؤمن بالله وقدرته وقدره ، فلا جواب لذلك السؤال عنده الا أنها
حكمة يعلمها الله ، وان الامامة العلوية منذورة لزمان غير هذا الزمان ،
وان الامام الحق يعلم زمانه أو ينبغي أن يعلمه بالهام من الله

وقد آمن شيعة على بهذا وآمنوا معه بعرفانه لعلوم الجفر وتأويل
الكتاب ، وكلما تباعدت المسافة بين امامة الواقع وامامة الحق تباعدت
معه المسافة بين امامة الظاهر وامامة الباطن ، ثم جاء الزمن الذي أصبحت
فيه امامة الباطن مستورة حتما فأصبح فيه علم الدين والدنيا مرهونا بما
يتعلمه الطالب من الامام المستور ومن دعائه الذين يخلصون اليه ويعلمون
مكانه ويفسرون أقواله وإشاراته ، ولا بد من هؤلاء الدعاة ولا مناص من
هذا التعليم ..

واذا كان السلطان صاحب الجند والصولة يعتمد في قيام دولته على
الشريعة والقضاء وعلى السيف والشرطة فعلا م يعتمد الامام المستور الذي
لا سلطان له من شرطة ولا جند ولا قضاء ؟

انه لن يعتمد على شيء غير الطاعة والثقة التي لا تتزعزع ، فلا جرم
يطيعه المطيع وهو يؤمن بعصمته على الأقل في شؤون امامته ، ويؤمن
بهلاك روحه ان خرج على حكم الطاعة وخان أمانة الدنيا والآخرة ، وتقض
العهود وحنت باليمين

كل هذا يديه ولا حاجة به الى رصف أوراق أو رص أسانيد ، لأنه
لن يكون الا هكذا حيثما كان ، وقد كان

ولا تنسى ان الأئمة أنفسهم يؤمنون بما يؤمن به أتباعهم ومريدوهم :
يؤمنون بحقهم ويؤمنون بيومهم الموعود ويؤمنون بالسرا الذي يروضون
أنفسهم بالعبادة والعلم على أن يستلهموه من هداية الله

ومن التوفيقات التي نسميها بتوفيقات « الموقف » أن الباطنية الواقعية

والباطنية الفاطمية أو الامامية على الجملة تتلاقى هنا - بحكم الموقف الواحد - في كثير من الأمور

فالدراسات المستورة أو المكتومة تتلافى في جانب واحد . وان كانت متعددة المطالب والموضوعات

وقد كان المحافظون على الواقع الراهن ينكرون هذه الدراسات ويمنعونها على درجات من المنع تتفاوت في العنف والصرامة

فكان « الموقف » الواحد يجمع بين أصحاب الدراسات المستورة أو الممنوعة التي لا يرتاح اليها أنصار الواقع والمحافظة على القديم

وليس من مجرد المصادفة أن فلاسفة المشرق كانوا من الشيعة بتفكيرهم كما كان منهم أناس متشيعون بنشأتهم وميراثهم من ييوتهم ، فكان الكندي والفارابي وابن سينا من الشيعة ، وكان اخوان الصفاء كذلك من الشيعة ، ومن كان من الفلاسفة سنيا كالنخري الرازي فمذهب الفلسفي في صفات الله يوافق مذهب الاسماعيليين وأئمة الفاطسيين . اذ كان يرى أن الايمان بتعدد الصفات واستقلال كل صفة منها عن الأخرى تعديد لا يوافق التوحيد ..

والذي نستخلصه من المذهب الفاطمي أن فلاسفتهم أخذوا بمذهب الفيض الالهى الذى تعلمه المشرقيون باسم الحكيم أفلاطون وهو يتسمى في حقيقته الى الحكيم أفلوطين

نستخلص هذا من قول ابن سينا أن أباه كان يذهب في الكلام عن العقل والنفس مذهب الاسماعيلية .

ونستخلصه من رسائل اخوان الصفاء وهم من القائلين بمذهب الفيض الذي كان يقول به أفلوطين .

بل نستخلصه من خلط الخالطين في هذا المذهب ، لأنه هو المذهب الذى يتعرض لهذا الخلط في كل مكان ، وقد تعرض له في الشرق كما تعرض له بين الأوربيين في القرون الوسطى ، ولا يزال يتعرض له في العصر الحديث وعلى نقىض ما قيل عن الاباحة في مذهب الاسماعيليين يمتاز مذهب

الفيض الالهي بالمبالغة في التطهر والاعراض عن الشهوات والترفع عن غواية الدنيا التي يتهالك عليها الجاهل ، والجاهل عندهم هو من يتعلق بشيء من الأشياء غير معرفة الحقيقة الالهية والبحث عنها في كل ظاهرة من ظواهر هذا الوجود ..

وقد نبه اخوان الصفاء في غير موضع من رسائلهم الى وجوب التطهر على الحكيم الخالص للحكمة في حياته الخاصة والعامة ، وقالوا غير مرة ان الاستسلام لشهوات البدن يقطع الانسان عن آخرته ومعاده ، ومن ذلك قولهم في رسالة الجسمانيات والطبيعات : « اعلم أن الاستغراق في الشهوات في هذه الدنيا ينسى الانسان أمر الآخرة ويشككه ويئسه منها كما قال قائلهم في هذا المعنى :

هي الدنيا وقد وعدوا بأخرى
وتسويف الظنون من السوام
وقيل أيضا في هذا المعنى شعرا :
خذوا بنصيب من نعيم ولذة
وكل وان طال المدى يتصرم
وقال آخر وقد كان ساهيا عن أمر الآخرة :
ما جاءنا أحد يخبرنا
في جنّة من مات أو في نار

وأشعارهم كثيرة في مثل هذه الظنون والشكوك والحيرة التي وقعوا فيها عقوبة لهم عندما تركوا وصية ربهم ونصيحة أنبيائهم واتباع علمائهم والحكماء فيما يدعونهم اليه ويرغبون فيه من نعيم الآخرة ويأمرونهم به من الزهد في الدنيا وينهونهم عنه من الغرور بشهواتها وعاجل حلاوتها « ومنذ القدم عرف عن هذا المذهب الفلسفي انه مذهب نسك وعفة وعزوف عن الماديات وترفع الى عالم الروح ، وكان أفلوطين صاحبه قدوة لأبناء عصره في العفة والزهد والانقطاع عن شواغل الثروة والجاه ، وكان من تلاميذه من يبيع قصوره وتفاصيله ليلزمه في معبده ويعيش على مثاله

ولا غنى عن خلاصة لهذا المذهب ننقلها هنا كما أوردناها في رسالتنا
عن الشيخ الرئيس ابن سينا وهي كما يلي :

« ... انه يتجاوز - أرسطو - أشواطاً بعيدة في التنزيه والتجريد ،
فيرى أن الله - أو الأحد - من وراء الوجود ومن وراء الصفات ، لا يعرف
ولا يوصف ، ولا يوجد في مكان ولا يخلو منه مكان ، وكسالة هو الكمالات
الذى تفهمه بعض الفهم بنفى النقص عنه ، وهيهات أن تفهمه بإثبات صفة
من الصفات ، لأننا نستطيع أن نقول انه لا يكون هكذا ولا نستطيع أن
نقول انه هكذا يكون ..

« وقد يتصل به الانسان في حالة الكشف والتجلي حين تتجاوز الروح
جسدها كما يقول ، ولكنها حالة لا تقبل التأمل والتفكير ، فإذا انقضت
فقد يثوب الانسان بعدها الى عقله فيتأمل ويفكر وينحدر بذلك من مقام
الأحد الى مقام العقل الذى هو دونه ، لأن الأحد فوق العقل وفوق
المعقول . ويقول أفلوطين كما يقول أرسطو أن الله أو « الأحد » لا يشغل
بغير ذاته ، لأنه مستغن بذاته كل الاستغناء . أما العالم فقد نشأ من صدور
العقل عن الأحد وصدور النفس عن العقل من هذا التأمل ، وان العقل
يعقل الأحد فهو أحد مثله وان كان دونه في مرتبة الوجدانية ، ثم يعقل
ذاته فينشأ من عقله لذاته عقل دونه وهو النفس أو هو القوة الخالقة التى
أبدعت هذه المحسوسات ..

« ومن البديهي ان صدور الجسم من الجسم ينقصه ويخرج شيئاً منه
ينتقل من المعطى الى الآخذ فينقص بانتقاله ، أما صدور الفكرة من العقل
فلا تنقصه ولا تجرده من شئ فيه ، وعلى هذا المثال تفهم صدور العقل
عن الأحد الذى لا يعتريه نقص بحال من الأحوال

« والنفس - وهى المرتبة الثالثة في الوجود عند أفلوطين - تتجه الى
العقل فتتسجم معه في مقام التجريد والتنزيه ، وتتجه الى الهوى فتبتعد
عن التجريد والتنزيه ، ولهذا تخلق الأجسام وتضفى عليها الصور على
سبيل التذكر لما كانت تتأمله وهى في عالم القدرة الكاملة أو عالم الصور

المجردة . فهذه المحسوسات هي كالظلال للمعقولات قبل أن تبرزها النفس في عالم المحسوسات ، أو هي كأطياف الحالم وهو يستعيد بالرؤيا ما كان يبصره بالعيان ..

« فالمحسوسات كلها أوهام وأحلام ، وكلها غشاء باطل يزداد بعدا من الحقيقة كلما ابتعد من العقل وانحدر في اتصاله بالهوى طبقة دون طبقة ، فان العقل دون الأحد والنفس دون العقل والمحسوسات دون النفس ، وهكذا تهبط الموجودات طبقة بعد طبقة حتى تنحدر الى الهوى التي لا نفس معها ، وهي معدن الشر في العالم ، لأنها سلب محض يحتاج أبدا الى الخلق ، وهو الایجاد أو الایجاب

» وقد صدرت النفس الفردية من النفس الكلية ، ولها كالنفس الكلية التي صدرت منها اتجاهات . فهي باتجاهها الى النفس الكلية الهية صافية ، وباتجاهها الى المحسوسات والأجساد حيوانية شهوية ، وليست النفس عند أفلاطون ملازمة للجسد كما يقول أرسطو ، بل هي جوهر منفصل عنه سابق له كالمثل الافلاطونية ، فلا تقبل الفناء ولا يحصرها الزمان والمكان ، وهي تصدر من النفس الكلية اضطرارا كما صدرت النفس الكلية من العقل الأول ، مستجيبة لطبيعة الاصدار في ذلك العقل ، وللشوق الهولاني الذي يترفع بالهوى الى منزلة المحسوسات فالمعقولات ..

« والتر في العالم هو الهوى لأنها سالة تنزل بالمعقولات والروحيات التي لا تلبسها ، ولا محيد عن الشر مع وجود الهوى وقدمها وضرورة الملازمة بينها وبين العقل والنفس في دور من أدوارها ، وعلى النفس أن تجاهدها وتنتصر عليها وعلى شهواتها ، فان أفلحت عادت الى النفس الكلية خالصة مخلصة ، وان لم تفلح عادت الى الجسد مرة أخرى ولقيت في كل مرة جزاءها على الذنوب التي اقترفتها في حياتها الجسدية الماضية ..

» ولا حرية للانسان كما رأيت ، لأن وجوده ضرورة يستلزمها الصدور وملابسة الهوى ، ولكنه يقاوم تلك الضرورة بجهد الشهوات ، فيترقى

من مرتبة الحس الى مرتبة التأمل الى مرتبة الكشف ، وينتقل من شتات الحس الى استجماع العقل الى وحدة الأحد ورضوان الكمال ، فتجزيه ضرورة الارتقاء عن ضرورة الانحدار ، ولا محل بينهما لشيء من الاختيار ، وان قال به أفلوطين في بعض الأحيان ... »

هذه خلاصة وجيزة جدا لأصول مذهب الفيض كما شرحه تلاميذ أفلوطين ، نعتمد فيها على المراجع الأوربية الحديثة التي نقلت مباشرة من اليونانية ، وقد نقل هذا المذهب مجملا في بعض الأوقات ومفصلا في أوقات أخرى الى اللغة العربية ، ووقع في نقله خطأ اسناد وخطأ تفسير .. فنسب الناقلون فصولا منه الى أفلاطون ونسبوا مبادئ منه الى أرسطو، ولكن المتصوفة الاسلاميين وفلاسفة الاسلام في المشرق قبلوا منه ما يوافق الدين الاسلامي وهو تنزيه الأحد وعقيدة التجلي على الخلقاء من العباد والمتأملين ، ورفضوا منه على التخصيص قوله بتناسخ الأرواح وعقوبة الأتقس في هذه الدنيا بردها الى الأجساد التي تشقى فيها : أو مكافأتها بردها الى الأجساد التي تترقى فيها الى مرتبة فوق مرتبتها

ووجد الفلاسفة والمتصوفة معا ما يوافقهم في أقوال أفلوطين ، فقال بالكشف وقدرة النفس على الخوارق طائفة من المفكرين لا يحسبون بين أهل الطريق ولا يدعون لأنفسهم صفة الامامة الدينية ، وانما قالوا بالكشف والقدرة على الخوارق أخذا بالأقيسة الفكرية ، واستدل ابن سينا على امكان الكشف بأن النفس الصالحة تتلقى في الرؤيا الأنباء بالمغيبات عنها وعن غيرها فلا مانع من تلقيها العلم يقظة متى تهيأت له بالرياضة وصفاء السريرة ، وان نفس الانسان تتصرف في مادة الجسد فلا مانع أن تتصرف في مادة الكون بقدرة تستمدّها من علة العلل التي تتصرف في جميع الأشياء

وطائفة من أصحاب المآرب وجدوا في تناسخ الأرواح ما يعينهم على دعواهم ، ومنهم من كان يدعى انه ابن الامام على بالتسلسل الروحاني مع اعترافه بأنه من غير نسله في السلالة الجسدية ، زاعما ان البنوة تحصل

بالإتماء الى الروح كما تحصل بالإتماء الى الجسد ، ولم يكن في هؤلاء أحد من الفاطميين ولا كانت بهم حاجة الى هذه الدعوى لأنهم يصححون نسبهم جميعا الى الامام عليّ بغير وسيلة هذا التناسخ المزعوم ..

ولا شك أن العلامة الشهرستاني كان يلخص طرفا من مذهب أفلوطين كما وصل الى المشرق حين قال في تلخيصه لكلام الباطنية عن الصفات : ان الله « لما وهب العلم للعالمين قيل هو عالم ، ولما وهب القدرة للقادرين قيل هو قادر ، فهو عالم قادر بمعنى انه وهب العلم والقدرة ، لا بمعنى انه قام به العلم والقدرة أو وصف بالعلم والقدرة .. وانه أبدع بالأمر العقل الأول الذي هو تام بالفعل ، ثم يتوسطه أبدع النفس الذي هو غير تام .. ولما اشتاقت النفس الى كمال العقل احتاجت الى حركة من النفس الى الكمال واحتاجت الحركة الى آلة الحركة الخ الخ »

فهذا المذهب في الصفات الالهية يوافق مذهب أفلوطين في جملته ، وفحواه بلا اغراب ولا ابهام انا حين نصف الله بالعلم لا ندرك من كنه العلم الا ما يعطينا اياه ، وانا حين نصف الله بالقدرة لا ندرك من كنه القدرة الا ما تقدر عليه بأمر الله ، وهكذا في سائر الصفات مما لا يجوز أن يفهم منه انه انكار لعلم الله وقدرته ، اذ كان أصحاب الفيض الالهى ينكرون نقائص الكمال ويرتفعون بالكمال الالهى مرتفعاً تعجز عن ادراكه العقول ..

لكن هذا المذهب كما أسلفنا عرضة للخلط في فهمه ممن يعرفون بما لا يعرفون ، فان هؤلاء يخلطون بينه وبين مذهب الحلول وهو يناقض مذهب الحلول أشد المناقضة وينكره غاية الانكار ، فان الخلاص من أوهام المادة الجسدية عند أفلوطين هو غاية التنزيه والتطهير ، ولا يتفق هذا مع القول بحلول الله سبحانه وتعالى في الأجسام

كذلك يخلطون بينه وبين وحدة الوجود وهما مذهبان متناقضان . فان انقائلين بوحدة الوجود يسبغون الصفة الالهية على الموجودات جميعا وهو قول ينفية أفلوطين جد النفي تنزيها لله « الأحد » عن جميع

المحسوسات والمتعددات ..

ويسمع السامع ان حكمة الخلق تتجلى في أناس بعد أناس فيخيل اليه ان اللاحق أفضل من السابق أو ان قيام مشيئة الله في كل عصر رسالة كرسالة الأنبياء ..

هذا الخط في فهم المذهب قد جنى على الحقيقة في غير طائل وجر الى الخبط في الظنون لغير علة لولا حماقة وخفة العقل وحب الحذقة والادعاء ..

وقد كان ابن هانيء الأندلسي من هؤلاء الذين يتعاطون الفلسفة ويهرفون فيها بما لا يعرفون ، ولم تكن حذقته مقصورة على مذهب الاسماعيلية بل هي طبيعة نشأت معه في موطنه ولغت بالفلسفة وهو يتصل بصاحب اشيلية فأقصاه خوفا من اتهامه معه بمشاركته في أضراليه وخزعلاته ، ولما مدح المعز الفاطمي بقصيدته الرائية التي قال في مطلعها :
ما شئت لا ماشاءت الأقدار

فاحكم فأنت الواحد القهار

لم يكن يريد أن يقول ان المعز أقدر من الله والا لما قال بعد ذلك :

وكأنما أنت النبي محمد

وكأنما أنصارك الأنصار

وانما أراد أن يتحذلق بما سمع عن صفات القدرة والعلم وان الله يوصف بالقدرة لأنه يعطيها ، وان مشيئته سبحانه وتعالى تقوم بمن يندبه لامضاء تلك المشيئة ، فخلط وخط واتهمه الناس ولهم العذر فيما اتهموه به ، ولم تكن به ولا بمدوحه حاجة اليه ..

الا اتنا اذا صرفنا النظر عن هذا وأشباهه من ضروب الحذقة والمبالغة في الشعر خاصة لم نجد في كلام القوم ما لم يألوه المتصوفة وأبناء الطريق ممن عبارات المجاز والكناية ، وليس فيما روى عن ثقات الفاطميين شيء لم يُسمع مثله من امام كبير كمحيى الدين بن عربي في كتب التأويل أو كتب الترسل الصريح ، وقد كتب محيى الدين الى فخر الدين الرازي رسالة

يقول فيها : « للربوبية سر لو ظهر لبطلت النبوة ، وللنبوة سر لو كشفه
نبطل العلم ، وللعلماء بالله سر لو ظهر لبطلت الأحكام ، فقوام الايمان
واستقامة الشرع يكتم السرية .. » الى آخر ما قال عن التوحيد والاتحاد
والوحدانية والأحادية .. وفوق كل ذى علم عليم ..

وهذا كلام لولا ولع المتصوفة بالاغراب لقال قائله ان النبوة لازمة لأن
الناس لا يكشفون سر الغيب بغيرها ، وان العلم لازم لأن النبوة لا تصل
الى الناس أجمعين ، وان الأحكام لازمة ، لأن العالم يزجره العلم والجاهل
تزجره الأحكام . ولكن الاغراب في أساليب المتصوفة والحدلقة في أساليب
من يسمعون ولا يفقهون أو من يفقهون القليل ويحبون أن يظهروا الفقه
الكثير — كل أولئك يقود الى الظنون حيث لا موجب للظنون

وجملة القول ان الباطنية الفاطمية لو لم تقترن بالدعوة الى قيام دولة
تحارب الدول القائمة لما استغربها الناس ذلك الاستغراب ولا اضطربت
حولها التهم والأقاويل ذلك المضطرب ، فقد كان كل مذهب في ذلك العصر
« باطنيا » على نحو من الأنحاء ، وأوشك أن يتساوى في هذا أهل السنة
وأصحاب التصوف وطلاب الفلسفة واخوان الصفاء ممن يتذكرون العلم
بينهم ويظهرون منه حيناً بعد حين ما طاب لهم أن يظهروه

فالامام الغزالي — وهو من أقطاب أهل السنة ومبغضى الفلسفة —
كان يؤلف للعامّة غير ما يؤلفه للخاصة . وكان من كتبه ما يضمن به على
غير أهله ، والامام ابن عربى المتصوف كان يدين بالسرية ويرى انها تمام
العلم والمعرفة ، وأبو العلاء المعرى الشاعر الحكيم كان في رأى داعى
الدعاة يخفى ما يعلم عن أناس يلعن بعضهم بعضاً ويتهم بعضهم بعضاً
بالكفر والمروق من الدين ، وشعارهم جميعاً :

خل جنبيك لرام وامض عنه بسلام
مت بداء الصمت خير لك من داء الكلام

الا أن يكون مندوباً لعمل لا حيلة له فيه أو متجرداً لرسالة يهون

فبها عنده أن يقول وأن يقال فيه

ومن المحقق ان الباطنية الفاطمية أضيف اليها الكثير بعد دخول الحسن بن الصباح الذي سيأتى ذكره في زمرتها ، ومن هذا الكثير أنظمة لم تعدها من قبل ، وعقائد لم تكن لازمة لها ولا معقولة منها ، وأهم هذه الأنظمة نظام الفدائيين الذين كانوا عدة الرؤساء في حوادث الغيلة والهجوم على المخاطر ، فهؤلاء لم يظهر لهم عمل في خدمة الباطنية الا بعد نشوء الدولة الفاطمية بأكثر من مائة سنة ، ولو كان للخلفاء الفاطميين جند من هذا النظام لما استبد بهم الوزراء أحيانا من غير مذهبهم ولا من المجاملين لطوائف الاسماعيلية المخلصة لأولئك الخلفاء

فقد استبد الأمير بدر الجمالي بالأمر دون الخليفة — وهو أمير الجيوش الذى ينسب اليه حى مرجوش والجمالية — وجاء ابنه الأفضل من بعده وسار مع الخليفة الأمر على خطة أبيه ، وكان بدر وابنه الأفضل على مذهب من مذاهب الشيعة غير مذهب الاسماعيلية، فصادروا الاسماعيليين ونفوا أناسا من قادتهم وغلاتهم من الديار المصرية ، وضاق الخليفة الأمر بوزيره ذرعا فتحدث الى ابن عمه فى قتله عند دخوله اليه بقصر الخلافة وواقفه ابن عمه على وجوب الخلاص من الوزير المستبد ولكنه أشفق على سمعة القصر من جرائم اغتيال الوزراء والكبراء فى رحابه ، وأشار عليه بتحريض رجل من صنائع الوزير نفسه على قتله ، واغرائه بمنصب سيده مكافأة له على طاعته ، واتفقا على اختيار المأمون بن البطائحي لهذه المهمة فقبل هذا ما أمروه به طمعا فى الوزارة ، ولم يجد البطائحي من يعينه على مهمته غير أعداء الوزير الذين تفاهم من مصر ثم تسللوا اليها خفية .. وشجعهم على الانتقام منه اغراء البطائحي لهم ووعدهم بالعفو عنهم واسناد الوظائف اليهم متى آلت اليه وزارة الدولة ، ولو كان نظام الفدائيين معروفا يومئذ فى الدولة الفاطمية لما استطاع الوزير الأرمنى المخالف لمذهب الاسماعيلية أن يستبد بالامام المطاع ولا احتاج الامام

المطاع الى التفكير في اغتيال الوزير بين يديه بقصر الخلافة ، ولا الى تدبير تلك المؤامرة التي اعتمد فيها على الوعد والاغراء والاستعانة بذوى المطامع والتراث ..

ولا شك أن الحسن بن الصباح لم يعمد الى نظام الفدائيين الا بعد استيلائه - كما سيلى - على قلعة « آلموت » واضطراره الى حماية نفسه من دول حوله تجرد الجيوش لقتاله ، وهو في قلعته بغير جيش يقاوم تلك الجيوش الزاحفة عليه بمثل عدتها وعددها في ميادين القتال وقد تغيرت الدعوة كلها حين تغير موضوعها وتغيرت وسائلها ، وأمعنت في التخفى أو في « الباطنية » الواقعية حين أمعنت في الهجوم على خصومها وأمعن خصومها في الهجوم عليها

أما قبل دخول ابن الصباح في زمرة الباطنية فقد كان استخفاء الدعاة وأتباع الدعاة ضرورة لا محيد عنها لا تتشاور أصحاب الدعوة في بلاد واسعة تدين بالطاعة لحكومات متوجسة ، تسرع الى التكنيل بكل من يخالفها ويناصر أعداءها . ولم يكن هذا الاستخفاء لترويج الدسيسة التي تملا عليها « مجوس أو يهود » يبتوا النية على هدم الدين وتضليل المسلمين ، بل كان لزاما لأصحاب تلك الحكومات ولا شك أن يشركوا رعاياهم معهم في الخوف من الاسماعيلية ، فلو انهم قالوا لأولئك الرعايا ان الاسماعيليين طلاب ملك ينتزعونه من ملوك ذلك الزمن لما تحركت لأولئك الرعايا ساكنة في حربهم والدلالة على مكانهم ، اذ كان أكثر الرعايا يعلمون ان الحكم في أيدي أناس لا يستحقونه بعلمهم وعملهم وان استحقوه بنسبتهم ، وان أصحاب السلطان الفعال من أجناد الديلم والترك دخلاء على العباسيين كما كانوا دخلاء على الفاطميين ، فان لم يكن خطر الاسماعيلية خطرا على الدين وعلى المسلمين جميعا فهو خطر لا يهم الناس في كثير ولا قليل ، ما دام مقصورا على أصحاب العروش والدسوت ولهذا راجت خرافة النسب الى المجوس واليهود ، وهى خرافة تنكرها

الحقائق النفسية ولا تؤيدها الشواهد التاريخية ، وكل ما ثبتت نسبة
الى أصحاب الباطنية الفاطمية فهو من المسائل التي يختلف عليها طوائف
المسلمين من سنيين وشيعيين ، بل يختلف عليها الشيعة الاماميون
أنفسهم بين القائلين بامامة موسى والقائلين بامامة اسماعيل من أبناء جعفر
الصادق ، وليس وراء ذلك كله دسيسة لهدم الاسلام كله وتضليل
المسلمين أجمعين ..

ومحصل القول في المذهب الاسماعيلي من الوجهة الفلسفية انه هو
مذهب الفيض الالهي كما اعتقده المتصوفة المسلمون من أصحاب الدعوات
السياسية وغير أصحاب الدعوات السياسية ، يضاف اليه القول بعصمة
الامام وانه هو وحده القادر على التأويل الصحيح والاحاطة بيوطن
التنزيل ، وينبغي أن نذكر هنا ان القول بالعصمة الواجبة لكل امام كان
مذهبا من مذاهب الفلسفة في حكومة المدينة الفاضلة ، فان الفيلسوف
الفارابي الذي كان يلقب بالمعلم الثاني قد طلب لامام المدينة الفاضلة كمال
العقل والعلم والخيال والذوق والخلق والخلقة ، ولعله لهذا كان قريبا من
التسعة محبا للمتشيعين

وقد كان القول بعصمة الأئمة لا يوجب على المؤمنين به سب كل خليفة
غير الامام على وأبنائه الأكرمين ، ولكن سب الخلفاء جرى على السنة
طائفة من غلاة الفاطميين وغير الفاطميين ، فاستنكره عقلاؤهم وحكماؤهم،
واستنكره أدبا من لا ينكره اعتقادا ولا يرى الخلافة لأحد غير الامام على
وبنيه ، ولا عذر من المسبة الباطلة على كل حال ، ولكن الخلاف القبيح
الذي أطلق الألسنة بلعن علّي على المنابر ستين أو سبعين سنة هو
الخلاف القبيح الذي أطلق الألسنة بعد ذلك بالجرأة على أقدار الأئمة
الآخرين رضوان الله عليهم أجمعين

حَسَنُ بْنُ الصَّبَاحِ

أشرنا في الفصل السابق الى التغير الذي طرأ على نظام الدعوة الاسماعيلية بعد دخول الحسن بن الصباح في زمرتها ، وسرى من جملة الأخبار والأعمال التي رويت عن ابن الصباح ان الرجل من أصحاب تلك الشخصيات التي لا تتصدى لدعوة من الدعوات الا أضافت اليها شيئا من عندها وطبعها بطابعها ، وانه لم يكن من أولئك الذين يتعلقون بدولاب كبير يديرهم الى وجهته ، بل كان من الذين يديرون الدولاب الى وجهتهم حين يتعلقون به ، ولا يدفعهم الى التعلق به الا انهم لا يستطيعون أن يخلقوا لأنفسهم دولابا مستقلا يتعلق به الآخرون

واتفقت الأخبار الصادقة والكاذبة التي رويت عن الرجل على صفة واحدة فيه يثبتها الخبر الصحيح والخبر الكاذب على السواء ، وهي الجنون بالسيطرة والقلبة ، وتعتمد أن نسميها الجنون بالسيطرة ولا نسميها حبا للسيطرة ولا رغبة فيها ، لأنه كان مغلوبا لدفة نفسه أو كان أول من غلبته تلك النزعة فمضى معها مسوقا لها غير قادر على الوقوف بها ولا الراحة معها

والسيطرة محبوبة لكل انسان ، ولكن الفرق عظيم بين من يهيم بالسيطرة لأنه لا يطيق العيش بغيرها ، وبين من يطلبها لأنه يفضلها على عيشة بغير سيطرة أو يفضلها على عيشة الطاعة والاذعان للمسيطرين ذلك مضطر الى طلب السيطرة ، وهذا مختار في المفاضلة بين الحصول عليها والاستغناء عنها ، وقد يفضل الاستغناء عنها اذا جشمه الطلب فوق ما يطيق ..

وكان الرجل داهيا ولكنه لم يكن من الدهاء بحيث يستر مطامعه

ولا يثير المخاوف فيمن حوله

أو لعله كان داهيا عظيم الدماء ، ولكن هيامه بالسيطرة واندفاعه اليها
كانا أعظم من دهائه . فأنكشفت غايته على كره منه وحيل بينه وبين بلوغ
تلك الغاية من كل طريق ينافس فيه المنافسون

ومما لا ريب فيه ان الرجل لم يكن من الغفلة بحيث يصدق كل خرافة
من الخرافات التي كان يذيعها ويتولى نشرها والدعوة اليها ، ولكن
التواريح والشواهد لم تحفظ لنا خبرا واحدا يدل على انه كان من السمو
الفكرى بحيث يسلم من جميع الخرافات ويتبطن ما وراءها من الحقائق ،
ولا سيما اذا كان التصديق هو طريقه الى السلطان والعلبة وقهر الخصوم
والاقتصار على النظراء ، فمن مألوف النفوس — أو من مألوف هذه
انفوس خاصة — أن تعتقد ما يواتيها على هواها ويمرز ايمانها بمطمعها ،
كما يفعل المحب الذي يؤذيه الشك ويؤذيه العلم بعيوب محبوبه فيروض
طبعه على اليقين وتجميل العيوب لأنها أريح له وأعون له على هواه من
عذاب الشكوك وانكشاف العيون

وهذه الطبيعة الموهودة في أمثاله دون غيرها هي التي تفسر لنا أعمالا
شتى يبدو فيها خادعا مخدوعا في وقت واحد ، فهو حصيف لا شك في
حصافته ، ولكن كيف يقع الحصيف في مثل ذلك السخف الذي لج به
حتى يسول له البطش بأقرب الناس اليه ومنهم ولده أو ولداه ؟
يقع الحصيف في مثل ذلك السخف ، وفيما هو أسخف منه ، اذا كان
مغلوبا على أمره مضطرا الى تسوين دفعته بمقيدة تجعلها في نظره وتلبسها
ثوب الواجب الذي لا محيد عنه ولا هوادة فيه

أما ان حسن بن الصباح كان مغلوبا على أمره في طلب السلطان فحياته
كلها سلسلة من الشواهد على طبيعة لا تطيق العيش بغير سلطان أو بغير
السعي الى السلطان ، فانه ما اتصل بأحد قط الا خافه على مكاته وتوجس
منه على الرغم من دهائه وفطنته ، ولو لم يكن طبعه أقوى من دهائه

وفطنته لما تكشفته منه دفعة الطمع في كل علاقة وفي كل مكان
سمع في شبابه عن الشيخ موفق النيسابوري ان تلاميذه جميعا يرتفعون
ببركة تعليمه في مراتب الدولة ، وكان ابن الصباح شيعيا ومدرسة الشيخ
الموفق معهد السنة في نيسابور ، فلم يمنعه ذلك أن يختارها للتعلم فيها
على أمل في الجاه والسلطان

ومن الذين ذكروه من محبيه رشيد الدين بن فضل الله صاحب
« جامع التواريخ » .. وفي روايته عن صباه يقول ان سبب العداء بينه
وبين الوزير نظام الملك انه كان يتلمذ معه في مدرسة نيسابور فتعاهدا
على المعونة اذا وصل أحدهما الى منصب من مناصب الرئاسة ، وان ابن
الصباح قد استنجز الوزير وعده فخيّره بين ولاية الري وولاية أصفهان ،
وكان ابن الصباح عالى الهمة فلم يقنع باحدى هاتين الولايتين ، فاستبقاه
نظام الملك في الديوان عسى أن يترقى فيه الى مكانة أكبر من مكانة
الولاة ..

والرواية على هذه الصورة عرضة للنقد والمناقشة ، ولكنها على كل حال
يصح منها شيء واحد : وهو علم المؤرخين للرجل — من محبيه فضلا عن
مبغضيه — انه كان بعيد المطامع منذ صباه ..

وحدث ، وهو في الديوان ، انه تصدى لعمل من أعمال نظام الملك
فوعده الملك بانجازه قبل أن ينجزه الوزير ، فاحتال هذا على احباط سعيه
وأوصد عليه الباب الذي أراد أن يندفع منه الى منصبه فوق كتفيه

وقيل في تعليل سفره الى مصر للقاء الخليفة الفاطمي انه استوعب كل
ما تعلمه من الدعاة فاستصغره الى جانب علمه بأسرار الدعوة ، فأراد
المزيد من العلم بالشخوص الى دار الحكمة في القاهرة ، لعله يستوفي
هناك علوم الاسماعيليين التي غابت عن دعاة العراق

ومن الواضح ان الشخوص الى عاصمة الخلافة الفاطمية هو المسمى
الذى لا تنصرف عنه همة طامع في مناصب الدولة ، فليس له مطمع في
بغداد وليس له بين السلجوقيين مقام محمود ، ولم يبق له الا أمل واحد

لا منصرف عنه ، وهو بلوغ المنصب المرموق في عاصمة الخلافة ومرجع الدعوة والدعاة ..

ولكنه لسوء حظه بلغ القاهرة وند تحكم فيها رجل قوى الشكيمة كبير المطامع يتولى القيادة والوزارة ولا يقنع بهما دون الامارة والملك لو تمهد اليهما السبيل ، ومن ثم زوج بنته للامير المستعلى بن الخليفة ، وأكره الخليفة أو زين له أن يختار المستعلى لولاية عهده ، أملا في الملك ان استطاعه لنفسه ، أو في توطيد الملك لذرته من بعده

ذلك هو أمير الجيوش بدر الجمالي الذي سبقت الاشارة اليه ، وذلك هو الند الذي تحفز ابن الصباح لمصاولته ومداورته بعد وصوله الى القاهرة ، فاختار نزارا لولاية العهد. واحتال جهده أن يحول بين المستعلى وعرش الخلافة ، واستمد من أساس المذهب الاسماعيلي كل حجة يدعم بها ترشيح نزار للخلافة بعد أبيه ، فزعم انه مثل بين يدي الخليفة المستنصر فوكل اليه الخليفة أن يدعو اليه والى ولي عهده بين الأمم الاسلامية . قال : « فسأله ومن ولي العهد ؟ فأشار الى نزار .. »

تلك قصة تشبه قصة الولاية التي صارت الى اسماعيل بن جعفر الصادق وثبتت له بعد عدول أبيه عن ولايته واسنادها لأخيه موسى ، فأنه الاسماعيليين يرفضون تبديل ولاية العهد لأن الولاية بأمر الله والله يتنزه عن البداء ..

فلما أراد الحسن بن الصباح أن يثبت الولاية لنزار أقام لها أساسا كالأساس الذي قامت عليه الدعوة الاسماعيلية من مبدئها ، وروى تلك القصة عن الخليفة المستنصر (والأرجح عند أناس من ثقات المؤرخين ان الخليفة لم يدعه الى لقائه ، بل أتزله منزل الكرامة في دار الضيافة ، ثم أبقاه على أمل يتردد بين التريب والاقصاء) ولكن ابن الصباح قد طال عليه الانتظار وأحس الخطر من أمير الجيوش فنجا بحياته من مصر ، ولما يصدق بالنجاة ، وراح بعد الافلات من الخطر ينشئ له دعوة جديدة في المذهب الاسماعيلي ، وهي الدعوة الى امامة نزار

وراح الحسن يطوف في بلاد الشام والعراق وفارس لينشر دعوته الجديدة حيث يأمن الرصد والمطاردة ، ويبدو ان حوافز النفس العلابية كانت في تلك الفترة على أشد ما تكون غلبة عليه ، حرجا بما لقيه وضيقا بالمطمع الذي ينازعه ولا يعلم المخرج اليه ، فقال يوما لأحد أصدقائه في أصفهان : لو أن معى صديقين أركن اليهما لاتزعت من هؤلاء السلاجقة عرشهم ... فظن به صديقه الجنون وأوصى طباخه أن يتخير لضيغه ما لطف من الطعام وطاب غذاؤه ، وأدرك الحسن أن صديقه قد خامره الشك في عقله فتركه ومضى لسبيله

والظاهر من مساعيه وحركاته في هذا التطواف انه كان يبحث عن أستاذه القديم في الدعوة الاسماعيلية عبد الملك بن عطاش ، وكان ابن عطاش قد ولاه الوكالة عنه ثم زين له السفر الى القاهرة ، وأطلعه قبل سفره اليها على أسماء بعض الدعاة المستترين الذين يلقاهم في طريقه ولكنه لم يطلعه على أسمائهم جميعا ، وأهم من ذلك لدى التلميذ المتحضر انه لم يعرف من أستاذه مكانا من الأموال المدخرة لبث الدعوة ولا عرف بطبيعة الحال كلمة السر التي تمكنه من أخذها وتكون علامة له عند المؤمنين عليها ، فما زال الحسن يتعقب ابن عطاش حتى ظفر بلقائه ووثق من اطمئنانه اليه ، ولعله استطلعه أسرار الودائع المخبوءة فأطلعه عليها ..

وواضح ان تجارب الحسن في رحلاته بين بلاد السلاجقة وخلفاء بنى العباس وخلفاء الدولة الفاطمية قد أياسته من الوثبة الى السلطان من طريق الولاية ، ولكنها لم تئسه من الوثبة الى السلطان حيث كان لاستقرار هواه في طبعه ، فطمحت به همته الى معقل من المعازل في أطراف الدولة ينفرد بحكمه ولا تمتد اليه فيه يد ملك أو خليفة ، وتخير الأطراف فلم يجد منها ما هو أصلح لمطلبه من بلاد الديلم ، فخرج اليها مع رهط من صحبه وأتباعه ، وقيل انه تلقى من مصر في هذه الأثناء ولدا لنزار بايعه بالإمامة وعمل باسمه ودعا اليه ، حتى انتهى به المطاف الى قلعة يقيم فيها

زعيم من العلويين فاستضافه فأنزله على الرحب والسعة وتفاضى عنه وهو ينشر الدعوة لمذهبه ويجمع الأنصار حوله ، ثم أحكم أمره كما يقول ابن الأثير فطرد صاحب القلعة واستولى عليها وعلى القلاع التي تجاورها ، وساعده على انتزاعها انه خيل الى أهل الاقليم ان مجموعة حروفها بحساب الجمل توافق تلك السنة الهجرية : سنة ثلاث وثمانين وأربعمائة (٤٨٣) وهي مجموعة حروف الألف واللام والهاء والألف والميم والواو والتاء التي تتألف منها كلمة الهاموت ، وأتم الحيلة في أذهان القوم انه فسرها لهم بمعنى النسر المعلم من (اله) بضم اللام بمعنى النسر في الفارسية و (اموهث) (١) بمعنى المعلوم أو المعلم ، ايماء من الغيب بتعليم الدين من قمة النسر الشاهقة ، والدين في مذهب الباطنية تعليم لا يستغنى عن الامام في كل زمان !

وقد تحدث المؤرخون والسياح عن أسرار تلك القلعة بالأعاجيب التي نزجى الاحاديث بين الناس فيصدقونها لأنهم يحبون الاستماع الى العجب والتحدث بالمعجب ويصعب عليهم بعد العشور على حديث عجيب أن يفرطوا فيه كما يصعب عليهم التفريط في كل قنية عجيبة أو كل تحفة نادرة ..

من هذه الأعاجيب ان الحسن بن الصباح عرف سر الحشيش من أستاذه الطبيب ابن عطاش فسخره في نشر دعوته ، وانه توسل به لاقناع أتباعه برؤية الجنة عيانا لأنه كان يدير عليهم دواخين الحشيش ثم يدخلهم الى حديقة عمرت بمجالس الطرب التي يتغنى فيها القيان ويتلاعب فيها الزاقصات ثم يخرجهم منها وهم في غيبوبة الخدر ويوقع في وهمهم ساعة يستيقظون انه قد نقلهم الى جنة الفردوس وانه قادر على مرجعهم اليها حيث يشاء ، وانهم اذا ماتوا في طاعته ذاهبون بشهادة أعينهم الى السماء قالوا : وان هذا الاقتناع أو هذا « الايمان العياني » يفسر طاعة أتباعه

(١) ينطق اسم القلعة « الاموت » او الموت بفتح اللام

الذين كان يأمرهم بالهجوم على أعوانه من الوزراء والأمراء بين حاشيتهم وأجنادهم فيهجمون عليهم ويغتالونهم غير وجلين ولا نادمين ، وان كلمة « أساسين » Assassin التى أطلقت فى الغرب على قتلة الملوك والعظماء ترجع الى كلمة الحشاشين أو الحسنين نسبة الى الحسن بن الصباح وقالوا ان الفتى من أتباع شيخ الجبل كان يبلغ من طاعته لمولاه أن يشير اليه الشيخ بالقاء نفسه من حائق فيلقى بنفسه ولا يتردد ، وان أحدهم كان يقيم بين جند الأمير المقصود بالنقمة ويتكلم لغتهم حتى لا يميزوه منهم ، وانه يفعل فعلته ويتعمد أن يفعلها جهره ولا يجتهد فى الهرب من مكانها ، وان أمهات هؤلاء الفدائيين كن يزغردن اذا سمعن خبر القداء ويبكين ويتنجن اذا عاد الأبناء اليهن ولم يفلحوا فى اغتيال أولئك الاعداء ..

وظل الحديث بهذا وأشباهه يتعاقب ويتناثر بين الأمم ، ويروى عن الحسن كما يروى عن خلفائه الى عهد الرحالة البرتغالى « ماركوبولو » الذى ساح فى المشرق فى أوائل القرن الثالث عشر للميلاد ، ولا يزال هذا التفسير الخرافى مقبولا فى القرن العشرين بين الأكثرين من المؤرخين والقراء ..

ونحن نستبعد جدا أن يكون للجنة المزعومة أصل فى قلعة حسن بن الصباح ، فان التكذيب أرجح من التصديق فى كل خيط من الخيوط التى نسجت منها القصة ذلك النسيج الواهى المريب

ان الحسن بن الصباح كان معروفا بالصرامة والشدة على نفسه وعلى أتباعه ، وكان يتنسك ويتقشف رياضة أو رياء أمام أتباعه وتلاميذه ، ولم يكن من اليسير فى تلك القلاع المنفردة أن يخفى أمر القيان ومجالس الراقصات والغناء زمنا طويلا دون أن يطلع عليه المقربون ان لم يطلع عليه جيرة القلعة أجمعين ، وليس من المعروف عن مدخنى الحشيش أن يحفظوا وعيهم ويفقدوه فى وقت واحد ، وأن يتلبس عليهم كلهم أمر العيان

والسمع هذا الالتباس ، وليس من المعروف عن الحشيش انه يهيم صاحبه
لمواقف الاقدام على المخاطر والاصرار عليها شهورا أو سنوات

ومن المحقق ان شيخ الجبل لم يطلع أحدا على سره ، وان أحدا من
المؤرخين لم يشهد تلك الجنة بنفسه ولم يسمع روايتها من شاهد بعينه ،
فهل من العسير أن تتبع مصدر هذا الخيال من روايات الزمن الذي
نشأت فيه وسرت منه الى ما بعده من أزمنة القرون الوسطى ؟

ان روايات هذا الخيال قد نشأت بين الصليبيين ولم تنشأ بين المشارقة ،
وقد كان الصليبيون في حاجة الى تأويل شجاعة المسلمين وهم في عرفهم
قوم هالكون لا يؤمنون بالدين الصحيح ، فخطر لهم وقالوا وكرّروا انهم
يستمتعون في الجهاد لأنهم موعودون بالجنة التي تجرى تحتها الأنهار
وترقص فيها الحور الحسان ، اذا استحبوا الشهادة في سبيل الله
واستغراب الشجاعة من الفدائيين هو الذي أحوجهم الى سبب كذلك
السبب أو أغرب من ذلك السبب ، وقد كان ماركوبولو في روايته يقول
ان الفدائيين صدقوا شيخ الجبل كما كان المجاهدون من العرب يصدقون
النبي عليه السلام ، وكأنه يقول انهم لهذا يقبلون الموت وهم قوم هالكون،
فهم في شجاعتهم مخدوعون

ان القوم قد عجبوا كيف يطيع الفدائيون شيخهم هذه الطاعة وكيف
يقدمون بأمره على الموت المحتوم . فلم يتخيلوا لذلك سببا غير الجنة
الموعودة ، وعرفوا الحشيش فالتمسوا فيه سر الجنة التي ترى في هذه
الدنيا رأى العيان ، وقد جاء ذكر الحشيش في كلام مؤرخي المشرق وذكر
بعضهم ان أناسا من شيوخ الطرق كانوا يستبيحونه ولا يحسبونه من
المسكرات المحرمة ، وذكر البندري مؤرخ آل سلجوق جماعة الحشاشين
وعنى بهم طائفة الاسماعيليين ، أما جنة « الموت » المزعومة فهي من
مخترعات الغرب لا نعلم انها وردت في كلام مؤرخ اسلامي قديم ولا أن
أحدا من مؤرخي الغرب أسندها الى مصدر من المصادر الاسلامية .. ولو

المجلات الاسلامية - ٢ - ٢١

كان لها مصدر من المشرق الاسلامى لكانت كتب الشرق أولى بابتداعها من كتب الأوربيين ..

وأول دلائل البطلان فى هذه الخرافة ان وجه الغرابة الذى دعاهم الى اختراعها غير غريب ، فان النخوة الدينية كانت أقرب شىء الى أتباع الأئمة فى ذلك الزمن ، ولا تصلح رؤية الجنة عيانا لتفسير تلك النخوة فى عجائز الفناء فضلا عن الفتيان المجردين للفداء . فاذا كان أولئك الفتيان يستهينون بالموت لأنهم شهدوا الجنة عيانا فالعجب لأمھاتهم اللائى كن يفرحون بفقدھم وينتجن لنجاتھم كيف ملكن جأشھن بغير تلك الآیة التى رآھا أبناءھن رأى العیان !

لقد كان الأمل فى ظهور المهدي المنتظر رجاء كل نفس وحديث كل لسان فى ذلك العصر من المؤمنين بالمهدية ، وكانت فتن العصر أشبه شىء بفتن آخر الزمان أو باشرط الزمن الذى يظهر فيه المهدي المنتظر ليملا الأرض عدلا كما ملئت جورا وينجو باتباعه ومصدقيه الى حظيرة الخلد والسلام ، وكان شيخ الجبل يتخير لتربية الفدائيين فتيانا أشداء يتفرس فيهم العزيمة والمضاء ولما يبلغوا الحلم ، ثم يأخذ فى تدريبهم على المشقة والطاعة وهم دون الثانية عشرة وأكثرهم من أبناء الجبال فى تلك الأطراف التى نشأ أبناءها على الفطرة وعلى استعداد للتصديق والايمان ، وكان الايمان بالدعوة العلوية قد شاع فى تلك الاطراف فخرج منها الأمراء والوزراء الديلميون الذين بايعوا خلفاء القاهرة وهم فى بغداد ، وكانت لشيخ الجبل ارادة من حديد تتسلط على أجناده تسلط « المنوم المغناطيسى » على المدرين عنده على التنويم ، فلم يكن فى طاعة هؤلاء واقدامهم على الاستشهاد من غرابة ولا من حاجة الى رؤية الجنة بالعين ، وتأتى الحروب الصليبية فتلهب ما فتر من النخوة التى أذكأها الصراع بين الدول والفرق والطوائف والخلفاء والسلاطين .. فلا يحتاج الفتى

المدخر للاستشهاد الى دافع أو حافز ، بل لعله يحتاج الى الوازع والرقيب ..

والمؤرخون الأوربيون الذين كتبوا عن خداع القادة لأتباعهم في الجماعات السرية كثيرون ، منهم من يحسن التفسير ومنهم من يسيئه ، ومنهم من يسرع الى الاتهام ومنهم من يترث فيه . فمن الذين أحسنوا التفسير ايفانوف الروسى صاحب كتاب « مؤسس الاسماعيلية المزعوم »
The Alleged Founder of Ismailism وهو ممن يصحّحون نسب

الفاطميين ويرجعون الاختلاف من قبل « الأساتذة المربين » الذين يختارون لتعليم الأمراء وتثقيفهم في العلوم وفقه الدين ، وقد عمّ الدعاة بالخداع من عهد عبد الله بن ميمون وخص بالذكر أئمة « الموت » من « المهدي حسن بن الصباح ورشيد الدين سنان » وسائر هؤلاء الدعاة ..

فأما ان حسن بن الصباح كان يسوق أتباعه بالخداع فذلك ما لا ريب فيه عند الخصوم ولا عند الأنصار ، فهل يصدق القول عليه انه هو يخدع ولا ينخدع وانه هو يسوق ولا يساق ؟ ..

الراجع عندنا ان هذا « المهدي » لم يكن خلوا من الايمان بدعوته على وجه من الوجوه ، وان عمله في الدعوة عمل جاد غير هازل وصامد غير متردد ، ولا داعى للشك في ايمانه بعمله وان كان هناك شك كبير في ايمانه بكل ما يقول لسامعيه ومتبعيه

وما بالنّا تتخيله خلوا من الايمان منصرفا كل الانصراف الى التزليل والخداع ؟ أليس من دواعى الايمان أن يكون الانسان مدفوعا الى عمله غير قادر على تركه ؟ أليس من دواعى الايمان أن يكون اعتقاد الانسان في عمله خيرا من اعتقاده في أعمال الآخرين ؟ أليس من دواعى الايمان أن يقنع نفسه برسالة صالحة وأن يستمد من علمه حجة لتلك الرسالة ؟

ان « التنويم الذاتى » معروف متواتر ، وانه لأقوى ما يكون حين تندفع اليه النفس ضرورة لا حيلة لها فيها ، وذريعة لها عذر من أحوال

الزمن ودواعيه ..

وربما بدأت عقيدة ابن الصباح في رسالته سلبية قبل أن ترسخ في طويته بالاعتناق الموجب واضحا أو وسطا بين الوضوح والغموض ونعني بالرسالة السلبية انه آمن ايمانا لا مثوية فيه بفساد العصر وضلال ذوى السلطان فيه ، وانه مهما يفعل في حربهم واستئصال فسادهم فهو على صواب ..

وتقتزن بهذه الرسالة السلبية دفعة فطرية الى السيادة والسلطان ، فماذا يصنع بهذه الدفعة ان لم يعمل بها عملا قويا متصل العزيمة والثبات ؟ اما أن يستكين الى سيادة غيره والموت أحب الى أصحاب هذه النفوس الغالبة المغلوبة من استكانة الخضوع ، واما أن يمضى قدما ولا بد له من مسوغ وبرهان ، وليس أسرع الى السريرة من المسوغ والبرهان حين ينجان من الفرق في لجج اليأس والانكسار وظلمات الفشل والهوان وقد قال داعي الدعاة في ذلك العصر ان الناس كانوا بين رجلين ، رجل لو قيل له ان فيلا طار أو جملا باض لما قابله الا بالقبول والتصديق « أو متحل للعقل يقول انه حجة الله تعالى على عباده ، مبطل لجميع ما الناس فيه ، مستخف بأوضاع الشرائع معترف مع ذلك بوجوب المساعدة عليها وعظم المنفعة بمكانها ، لكونها مقمعة للجاهلين ولجأما على رؤوس المجرمين المجازفين .. »

وهذه عقيدة قوم لا دفعة في طبائعهم الى طلب السيادة والسلطان ، ولبس في طويتهم ما يثيرهم الى الحركة اذا آثروا السكون ، فاذا كانت هذه العقيدة في طوية رجل لا يهدأ ولا يستكين ولا يرى في نفسه الا انه أهل للقيادة والامامة ، وان الذين حوله أهل للقمع والنكال ، فمن اليسير عليه أن يسوغ لنفسه خداع العامة والخاصة لتحقيق غاية على يديه ، هي أصلح مما هم فيه ، وأصلح مما يحققونه على أيدي سواء وقد سوغ أفلاطون في جمهوريته خداع الدهماء وخداع المتعلمين

الناشئين ، وسوغ فيثاغوراس من قبله حجب الحقيقة عن بعض العيون وتقريب الأمر الى المريدين بالرموز والاشارات ، وأباحا ذلك وليس واحد منهما مأخوذاً بدفعة السيادة ، وليس في زماهما دعوة سرية عامة كالدعوة التي لفت حسن بن الصباح من رأسه الى قدميه ، فلم لا يسوغ هذا المذهب في قيادة الدهماء لحسن بن الصباح ؟ وهل من البعيد انه أطلع على أفلاطون وفيثاغوراس كما أطلع على أفلوطين ؟ ان القول باقتباس الباطنية من هذين الحكيمين راجح متواتر ، فليس مما يخل بحكمة الحكيم أن ينصب نفسه للهداية ويسلم نفسه ورسائله الى عناية الله يتوجه به حيث أراد

ان المؤمنين الخالصين للايمان بغير موارد ولا مراجعة أندر من الندرة بين بنى آدم وحواء ، وما من أحد آمن بمقيدة الا عرف في بعض حالاته كيف يوفق بين الشك والاعتقاد وكيف يسلم الأمر لله ويستلهمه اليقين وتسعون في كل مائة ، ان لم تقل أكثر من ذلك ، يؤمنون بالمقيدة ايمان الوقاية أو ايمان الرغبة فيما يعدون به أنفسهم أو يعلمهم به الهداة ، واذا استطاعت قوة الاعتقاد أن تقنع الملايين بالتسليم لقائد منجد أو دليل مرشد ، فأحرى بهذه القوة أن تقنع من ترفعه عقيدته في نفسه ، أو في دعوته ، الى مقام السيادة والقيادة ، وتبسط يده على خصومه مستحقين لعقابه ، وعلى أصحابه مستحقا منهم الطاعة والتسليم ..

لم يكن حسن بن الصباح خلوا من الايمان بعمله فيما نرى ، ولم يكن عسيرا عليه أن يركن الى دعوة تغريه بها ضرورة الفطرة ، ويحضه عليها فساد الزمن وسهولة المسوغ للخروج على المفسدين فيه ، ولا يمز عليه أن يميزها بعلامة من علمه الواضح أو من علمه الغامض وما يلتصع فيه من بريق يثبت عليه بالالهام حيناً بعد حين ، فما عاش الرجل بقية حياته غائباً عن صوابه ولا مالكا لكل وعيه ، وبين هذا وذاك منزلة الغالب المغلوب والخادع المخدوع ..

استولى الحسن على قلعة « ألوث » في سنة ٤٨٣ هجرية ومات في سنة ٥١٨ هجرية ، فظل مالكا لتلك القلعة باسطا نفوذه على ما حولها خمسا وثلاثين سنة ، لعله كان خلالها أقوى رجل في الديار الاسلامية من مراکش الى تخوم الصين

ومات « المستنصر » الخليفة الفاطمي سنة ٤٨٧ للهجرة ، فانفتحت أمام الحسن أبواب الدعوة لنفسه باسم « نزار » وولي عهده ، وتسمى بالمهدي ، وانتحل البنية الروحية للانتساب إلى الامام ، واستعان بتعدد المراجع في المذهب الاسماعيلي على انتحال المرجع الذي يروقه أن يدعيه ، فهو : حجة ومهدي وإمام كما يشاء .

وقد اعتمد في توطيد سلطانه على ثلاث : الحيلة ، والغيلة ، والفتنة الدخيلة . فمن الحيلة أن السلطان السلجوقي ملكشاه سير اليه فرقة لمحاصرته بعد استيلائه على قلعة الموت بستتين ، ولم يستكثر من الجند كما أوصاه وزيره نظام الملك استخفافا بشأن القلعة وحاميتها ، فلما أحاطت الفرقة بالقلعة بين الجبال الجرداء والقفار الموحشة وطال على جنودها العهد بلهو العواصم والحواضر أمر الحسن بقافلة تحمل الخمر فيما تحمل من المتاع فسيرت على مرأى من الجيش المحاصر ، فما وقعت أيديهم على زقاق الخمر حتى أفرغوها في أجوافهم وانطلقوا يقصفون ويهزجون ، فانقضت عليهم حامية القلعة وأمعنت فيهم قتلا ونهبا وتشريدا من دون أن تصاب الحامية بخسارة ذات بال

وأعاد ملكشاه الكرة ولقد أصاخ الى نصيحة وزيره في هذه المرة ، فضيق المحاصرون مسالك القلعة وساكنيها وبطلت الحيلة فاعتمد الرجل على الغيلة ، وأرسل الى الوزير فتى من فتياه القدائين فقتله فعاد الجيش الذي سيره الوزير الى حيث استدعاه ملكشاه ، لحاجته اليه في اتقاء الفتنة واتقاء الغارة من المغول

وتساعد الرجل مصادفات الحوادث .. فيموت ملكشاه ويزعم الاتباع والأشباع أنها كرامة المهدي تنجي من أعدائه واحدا بعد واحد ، ويتنبه الرجل الى مواقع الفرص فلا تفوته منها فائتة ، فلما نشبت الفتنة بين ولدي ملكشاه جعل همه أن ينصر أحدهما على الآخر حتى يوشك أن يظفر بأخيه فيسلط على الجيش المنتصر سلاح الغيلة أو سلاح الفتنة الدخيلة، ومن أساليبه في هذه الفتنة أن يترك المخاطرين في شك ممن هو معهم ومن هو عليهم ، وقد يشيع عن أحد أعدائه في دولة الأمير أنه من الاسماعيليين « الصباحيين » المستترين ، وقد يوهم الأمير غير ذلك فيقرب اليه ويظهر العداء لابن الصباح ومتبعيه

فلما آل العرش الى السلطان سنجر بن ملكشاه ، وكان من أقوى الملوك وأغناهم في عصره ، لم يجد بدا من مصالحة ابن الصباح ، وقيل في أسباب المصالحة أنه كان من أهمها شك السلطان في حاشيته وقواده وأجناده ، وتخوفه من أن تكون الدعوة السرية قد قلبت عليه أقرب الناس اليه وهو لا يعلم ، فتعاقد مع ابن الصباح على المسالمة وترك له جباية الضرائب والاتاوات في اقليمه ، ويروى أنه وجد في طريقه الى حصار « آلموت » خنجرا مغروسا في فراشه مكتوبا عليه أن الذي غرسه هنا قادر على أن يغمده في صدرك ، وأنه سمع عن أمراء الحصون أنهم يضمرون العقيدة الباطنية ويعلنون الطاعة للسلاجقة في انتظار الأمر من شيخ الجبل ، فآثر المسالمة على القتال

ولم يبال شيخ الجبل بالانقطاع عن الدعوة الفاطمية ، بل لم يبال بسقوط الخلافة الفاطمية ولم يحجم عن تهديد خلفائها علانية وخفية ، وهمه قبل كل شيء أن يكون أتباعه خالصين لطاعته والثقة به في غير مشاركة ولا هوادة ، فانقسمت الدعوة الاسماعيلية على نفسها وأصبح لها في البلاد الفارسية والعراقية معسكران متنازعان : أحدهما معسكر ابن الصباح يدعو الى زار ويدعى المهدي لشيخ الجبل ويحارب المعسكر

الآخر من الاسماعيليين ، والثاني يدعو الى المستعلى وأبنائه ، وبقيت منها اليوم طائفة الاسماعيليين المعروفين باسم البهرة ، يقولون ان المهدي المنتظر سيظهر عما قريب من سلالة الخليفة « الأمر » الفاطمي وأنه يحضر موسم الحج في كل عام ، فمن رأى الحجاج جميعا في موسم من مواسم الحج فقد رآه ..

وحيرة المؤرخين والباحثين النفسانيين هي حياة الرجل في السنوات الأخيرة من مقامه بقلعة آلموث . انه لم يكذب يفارقها بعد دخولها ، ولم تكن له أسرة فيها غير امرأته وولديه ، وهذا الزعيم « الباطني » الذي قيل عن مذهبه انه ذريعة الى استباحة المحرمات والتهالك على اللذات قد اتفق انكاتبون عنه على زهده واعتكافه وعزوفه عن المباح من الأطياب ، فضلا عن الحرام ، وزعم بعض المؤرخين حين قتل ابنه أنه قتله لمخالفته اياه في شرب الخمر على الخصوص ، ولم يقتل ولدا واحدا بل قتل ولديه الاثنين وهو في شيخوخة لا مطمع له بعدها في الذرية ، وهذه هي حيرة أخرى من حيرات لا تحصى في مسلك هذا الانسان العجيب كله ، وفي مسلكه قبيل وفاته على الخصوص

هل هو مجنون مطبق الجنون ؟ ان المجنون المطبق الجنون لا يستغرب منه قتل أبنائه في شباب ولا شيخوخة ، وتزول بهذا غرابة القتل ولكنها تزول لتخلفها غرابة أعضل وأدهى ، وتلك هي قدرة المجنون المطبق الجنون على التدبير المحكم عاما بعد عام ، وقدرته على حفظ مكانه ومكاته بين وزرائه وأعوانه ومنهم الأذكاء والدهاة وفيهم الشجاعة والهمة والاقدام ..

هل له عقيدة يصبر في سبيلها على الشظف والضنك ويستبيح من أجلها اراقة الدماء ، دماء الأبناء كدماء الأعداء ؟

انه خلق العقيدة النزارية خلقا فمن البعيد أن يخلق العقيدة وينخدع بها ويصبر في سبيلها على ما صبر عليه ويستبيح في سبيلها ما استباح

والذى يبطل الحيرة فى اعتقادنا هو التفسير المقبول لطبيعة هذا الانسان
العجيب ..

ونبدأ فنقول اتنا ينبغى أن نستغرب من حسن ابن الصباح ما هو
غريب منه لا ما هو غريب من غيره ، ولو كانوا معظم الناس

فالغريب فى طباع الناس تجردهم من الحنان الأبوى أو فتور هذا الحنان
فيهم ، ولكن هل خلا الجنس البشرى من آحاد يهون عندهم الحنان فى
جانب التوازن القوية التى لها السلطان عليهم وليس لهم عليها سلطان ؟
هل خلا الجنس البشرى من آحاد نراهم بيننا تستهويهم الشهوات الصغار
فضلا عن الشهوات الكبار ، فلا يبالون ما يصيب أبناءهم من جراء تلك
الشهوات ؟ ..

وهل من البعيد أن يكون ابن الصباح هذا من أولئك الذين تملكهم
نازعة تطغى على حنان الابوة ؟

كلا ! ليس هذا بالبعيد على الإطلاق ، بل هو دأب الطامحين من أمثاله
الى السيطرة ، ودأب الذين يهون عليهم شظف العيش ولا يهون عليهم
الخضوع والبقاء فى زوايا الاهمال ، وقد يكون الولدان اللذان أمر بقتلهما
قد تأمرا عليه مع بعض أعوانه المتطلعين الى مكانه كما جاء فى بعض
الروايات ، وقد يكون أحدهما هو الذى تأمر عليه كما هو الأرجح ويكون
ظنه بالآخر انه لا يفلح ولا يؤمن على مصير الدولة بعده ، وقد يكون
بطشه بابنه فى سبيل رسالته هو المسوغ المقبول أمام ضميره لاقدامه على
البطش بالعرباء فى هذا السبيل

فاذا كان الظن بجنونه المطبق حيرة ، وكان الظن بفقلته حيرة مثلاً :
فأنقى الظنون للحيرة انه أطاع طبعه فى طلب الغلبة على الرغم منه ، وانه
اتخذ من فساد زمانه حجة على وجوب رسالته وقداستها ، وانه راض
نفسه على شذائد تلك الرسالة لتكون الشذائد التى يضطلع بها حجة
له على صدقه ومطاوعة طبعه ، وانه كان عرضة لسورة الغضب ونوبة

الفتك في أزمت طبعه ولكنها سوراة ونوبات دون الجنون المطبق في جميع الأحوال ، وهذا كله جائز غير مستغرب . أما المستحيل فهو أنه مصاب بالجنون المطبق أو خادع لا عمل له ولا غواية من وراء عمله غير الخداع والتضليل ، أو أنه مغفل لا يدري موضع الغفلة من سريره ، وهو يتسلل بالاقناع الى سرائر المئات والألوف ، ومنهم الأذكاء والألباء والحصفاء ..

السرية الباطنية

ولعل سيرة شيخ الجبل في نقائضها المعلومة هي ألزم السير للتعريف
بمعنى السرية الباطنية أو السرية الاسماعيلية على التخصيص ، فهذه
السرية كانت تشتد وتتراخى تبعا للعمل الذي ينوطه الامام بدعائه ، لاتبعا
للفكرة أو للعقيدة التي يخالفون بها أصحاب الفكر والمعتقدات الأخرى
كانت السرية تشتد كلما خشي دعاة الامام في بلاد أعدائهم على أنفسهم
وعلى رؤسائهم وأئمتهم ، وكانت تشتد كلما كان الكتمان أنجح لهمتهم
وأعون على تشتيت أعدائهم وتبليبل الأفكار فيما حولهم ، وكانت تتراخى
حتى لاسرية على الاطلاق حيث تكون الدولة دولتهم والأمور مؤاتية
لهم ولسياستهم ، وقد يعقدون المجالس ويحاضرون في الأندية العامة
لاعلان آرائهم واقناع معارضيههم كلما اطمأن بهم المقام في ديارهم

ومن الجائز أن تكون تلك الأعمال مرتبطة بالعقيدة الخاصة في الامام ،
حين يكون تعظيم الامام وتقديسه لازمين لاقتناع الداعية أو الفدائي
بالهجوم على الخطر ومواجهة المصاعب والأهوال في غير اشتفاق على حياته
أو حذر من عاقبة أمره ، ففي هذه الحالة يتصف الامام بالقداسة التي
توجب على المريد طاعته وتضمن له النجاة في هذه الدنيا أو في الدار الآخرة
وكثيرا ما يستغنى الامام عن المغالاة بقداسته في الأزمنة العصيبة التي
تلتهب فيها الحماسة الدينية ويشيع فيها الأمل باقتراب الأوان الموعود
وتوالي العلامات والأشراط التي تؤذن بظهور المهدي وانتصار زمرة على
أعدائهم وأعدائه ، فاذا شاع في النفوس هذا الأمل فلا حاجة بالامام الى
عقائد المبالغة والمغالاة في أمره ، وحسبه أنه قائد مصدق مطاع ياتمر

بنعوته جند مصدقون مطيعون

وإذا أردنا التوسع الذي يشمل جميع المذاهب وينتظم مذاهب السنة والشيعة جميعا ولا يخص الاسماعيلية أو الزارية وحدها فالخلاف على الامامة هو محور كل خلاف بين جميع المذاهب من جانب السنة أو من جانب الشيعة ، فكل ما عزز ضرورة الامام الحى فهو من عقائد الشيعة ، وكل اختلاف أردنا أن نعرف عقيدة الشيعة فيه فلنرجع بجانبى الرأى الى محور الخلاف كله ، فأيهما كان أقرب الى ضرورة الامام الحى فهو من مذهب الشيعة ، بغير حاجة الى البحث الطويل والاستقصاء البعيد

وقد لخص النزالى هذا الفارق فى كتاب المنقذ من الضلال فقال : « الصواب أنه لابد من الاعتراف بالحاجة الى معلم وأنه لابد أن يكون المعلم معصوما ، ولكن معلنا المعصوم هو محمد صلى الله عليه وسلم : فإذا قالوا هو ميت فنقول ومعلمكم غائب ، فإذا قالوا : معلنا قد علم الدعاة وبثهم فى البلاد وهو ينتظر مراجعتهم ان اختلفوا أو أشكل عليهم مشكل ، فنقول : ومعلمنا قد علم الدعاة وبثهم وأكمل التعليم ، اذ قال الله تعالى : اليوم أكملت لكم دينكم . وبعد كمال التعليم لا يضر موت المعلم كما لا تضر غيبته . يبقى قولهم : كيف يحكمون فيما لم يسمعه ؟ أقبالنص ولم يسمعه ، أم بالاجتهاد بالرأى وهو مظنة الخلاف ؟ فنقول : نفعل ما فعله معاذ رضى الله عنه لما بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم الى اليمن ، اذ كان يحكم بالنص عند وجوده وبالاجتهد عند عدمه ، بل كما يفعله دعائهم اذا بعدوا عن الامام الى أقاصى الشرق ، اذ لا يمكنهم أن يحكموا بالنص فان النصوص المتناهية لا تستوعب الوقائع غير المتناهية ولا يمكنهم الرجوع فى كل واقعة الى بلدة الامام ، والى أن يقطع المسافة ويرجع يكون المستفتى قد مات أو فات الانتفاع بالرجوع ، فمن أشكلت عليه القبلة ليس له طريق الا أن يصلى باجتهاده ، اذ لو سافر الى بلدة الامام ليعرفه القبلة لغات وقت الصلاة . فاذا أجزت الصلاة الى غير

القبلة بناء على النطن - ويقال ان المخطيء في الاجتهاد له أجر واحد وللمصيب أجران - فكذلك في جميع المجتهدين .. »
ومهما يكن من قول في تفصيلات الشعائر أو الفرائض فما كان منه أقرب الى تعليم الامام المعصوم فهو قول الشيعة وماعداه فهو قول السنين وجميع المقرين للامامة على مذهبهم كالزيديين ، وهذا هو الذى يؤيد أن مرجع السرية كله هو الرأى فى الامامة لا عقائد مستورة أو خلائق مخالفة لأدب الدين أو العرف بين المسلمين وغير المسلمين

خذ لذلك مثلاً اعلان بدء الصيام ، فان رؤية الهلال فيه كافية على مذهب السنين ، ولكن هذا الرأى يفتى عن اعلان الامام للصيام فلا يأخذ به الاماميون ، بل يقولون ان المسلمين كانوا فى حياة النبى عليه السلام يصومون حين يصوم ، فلما أزمع السفر سألوه عن موعد الصيام فقال لهم : « صوموا لرؤيته وافطروا لرؤيته » . ولم يكلمهم الى الرؤية قبل ذلك وهو مقيم معهم يصوم فيصومون

ووجود علم مستور يتعلمه الناس من الامام دون غيره هو العقيدة التى لا محيد عنها لمن يقولون بالامامية ، وانما يختلف العلم المستور باختلاف الأئمة والأوقات والسائلين ، فقد يكون العلم المستور هو تأويل القرآن ، واجابة كل سائل عنه بما يقدر عليه ، وقد يكون العلم المستور سياسة محكمة لا تكشف لكل طالب ولا يجوز التردد فى طاعتها توقفاً على فهمها ، فانها لو كشفت فى بعض الأزمنة لحاق الضرر بمن تشملهم تلك السياسة أجمعين ..

وقد فسر ابن الصباح اسم قلعتة بمعنى النسر المعلم ، فهى مرجع المؤمنين من أتباعه لا يستغنون عن تعليمها بالابتعاد عنها ، وقد ترخص بعض الامانيين فى أمر العصمة الواجبة للامام ، فأباح بعضهم نقد الامام كما فعل حسن ابن الصباح فى نقد الخليفة المستنصر ، بل كما فعل داعى دعاة الخليفة نفسه هبة الله الشيرازى الذى سبقت الاشارة اليه ، ولكنهم

يقولون ان الامام يصيب وهو مختار ، ويجرى مع الخطأ وهو مكره ،
ولا سيما في اختياره لولى عهده وصاحب الامامة من بعده ، فان من اختاره
طائفا فهو الصواب المطاع

لقد صحننا منشىء « الاسماعيلية الجديدة » من عهد بروزه في ميدان
الدعوة الفاطمية ، ولم نبدأ بسيرته من نشأته الأولى . لأن حياته العامة
لا تتوقف على أخباره في أوائل نشأته .. فما من خبر منها متفق عليه
حتى اسمه وموطنه ونحلته ، فهو ينتسب الى اليمن ويذكر من نسبته
أنه الحسن بن على بن محمد بن جعفر بن حسن بن محمد الصباح
الحميرى ، ومنكرو دعواه يقولون انه قروى من خراسان ، ومنهم من
يقول ان أباه كان يعمل فى الصياغة ، صناعة الصابئة على شواطئ بحر
العجم ..

والثابت أنه مات ولم يظهر له فى حياته ولا بعد مماته أحد من ذوى
قربته ، وان دعوته لم تفلح فى بلاد اليمن بل أفلحت فيها دعوة الطيب
ابن الأمر التى كانت تناقض الدعوة الى نزار امام الحسن المختار ، وقد
أوصى الحسن بعده لرجل فارسى غريب عنه لا تربطه به نسبة ، ولعله من
أقربائه المستورين ان صح أنه من الفرس وليس من أهل اليمن

ورويت عن صباه تلك القصة التى جمعت بينه وبين الخيام ونظام الملك
بمدرسة نيسابور ، ولكنها قصة يرتاب فيها طائفة من ثقات المؤرخين ،
لأن نظام الملك ولد سنة (٤٠٨ للهجرة) فاذا كان ابن الصباح والخيام
من لداته فقد بلغا اذن أكثر من مائة سنة ولو قدرنا أنهما أصغر من نظام
الملك ببضع سنوات ، وفى ذلك موضع للشك غير ضعيف

وأيا كان الخبر الذى يثبت من أخبار صباه فهو لا يغير شيئا من ملامح
« الشخصية » التى برز بها فى التاريخ ، وهى شخصية المغامر صاحب
الدعوة التى انقطعت عن جذورها واتصلت به وبغاياته ومراميه ، وهذه

يعد شخصية أثبت في ملامحها من شخصية ميمون القداح وأحدث في
الدعوة الفاطمية ، وعلى دعوتها تقاس الدعوات التي اقترنت بالفاطمية
في تاريخها المعلوم أو تاريخها المجهول

بُناءٌ وهَئامُون - وَمَهْدُومُونَ

ينسب قيام الدولة الفاطمية الى جهود الدعاة الذين انبثوا في المشرق والمغرب واقتنوا في تبليغ الدعوة سرا وجهرا الى كل طائفة بالوسيلة التي تلائمها ، ويغلو بعض المؤرخين في شأن هذه الجهود حتى يخيّلوا لمن يقرأهم ان غير هذه الجهود لم يكن له في اقامة الدولة الفاطمية شأن ذو بال ..

ولا شك في براعة الدعوة الفاطمية وقوة أثرها في التمهيد لقيام الدولة ، ولكننا لا ننسى أن بعض هذه الدعوة كان يسيء الى القضية ولا يحسن ، وان فريقا من الدعاة كانوا يخدمون أنفسهم ويضرون قضيتهم ، وان الدعوة لو انصرفت كلها الى الخدمة والتمهيد ولم ينصرف شيء منها للإساءة والتنفير لما بلغت غايتها ان لم يكن جو العالم الاسلامي متهيئا لقبول نظام جديد والاعراض عن نظام قديم والواقع أن جو العالم الاسلامي قد تهيأ في القرن الثالث لقبول هذا التبديل في نظامه ، وكان هذا التهيؤ من شقين : شق ينكر النظام القائم وشق يرحب بالنظام المنتظر ويعطف عليه

وكاتوا يسمون ذلك دلالات النجوم ، فيربطون بين مشيئة الانسان ومشيئة الكون كله ، ويلبّح لهم حين يريدون التغيير ان التغيير كائن ولو لم يريدوه ، ولو لم يعملوا لتحقيق ما أرادوه

وتوجد الكلمة التي تحفظ حين تلفظ ، ويسمع الناس « ان الشمس مستشرق من مغربها » فيهمس بها بعضهم الى بعض ، ويجب السامع مما سمع فلا ينسأه

وقد كان علم النجوم قد استفاض في كل مكان ، وليس أكثر من

مقارنات الفلك التى يحسب المنجمون أنها علامة الغيب على الغير والاحداث ، وطلاب التغيير هم المستبشرون دائما بتلك العلامات وهم الذين يركنون اليها ويتربونها . ولا سيما حين يكون علم النجوم علما يحبه المجددون ويمارسونه ، ويغضه المحافظون ويتشاءمون به ولا يتربون الخير من ورائه

وما كان أبو تمام ينظم قصيدة من قصائد المدح وحسب حين قال عن النجم ذى الذنب فى زمانه

أين الرواية بل أين النجوم وما
صاغوه من زخرف فيها ومن كذب
قد صيروا الأبرج العليا مرتبة
ما كان منقلباً أو غير منقلب
وخوفوا الأرض من دهياء داهية
إذا بدا الكوكب الغربى ذو الذنب

ولكنه فى الواقع كان ينظر فى أوائل القرن الثالث الى الوجهتين المتقابلتين : وجهة الراضين عن نبوءات النجوم ووجهة المتبرمين بها ، وما زالت الوجهتان تنفرجان حتى شهدت نهاية القرن غاية التفاؤل وغاية التشاؤم بعلامات النجوم

قال صاحب زهر المعانى : « وكان أهل النجوم والحساب يذكرون ظهور المهدي بالله وييشرون بدولته ، ثم ان الملوك والأضداد أيقنوا بذلك ، وان صاحب الزمان تقدم للهجرة الى المغرب والمهدي فى كنفه .. حتى يكون أو ان ظهوره وطلوع نوره . . وأن يكنوه بالشمس الطالعة »

وكان المهدي نفسه على علم بمراصد النجوم ، فكان يتفأل بمقارناتها ويبشر بها أتباعه ، وهم بغير هذه البشارة مصدقوه ، فاذا علموا أن الكون كله يتأهب « لطلوع الشمس من المغرب » فقد بلغ التصديق غاية اليقين وقد أثر عن حفيد موسى الكاظم - كما جاء فى المقرئى - انه قال فى سنة اثنتين وخمسين ومائتين ان الامام المنتظر سيظهر بعد اثنتين وأربعين

البحر فيات الامامية - ٢ - ٢٧

سنة ، ونظم الفهرى هذه النبوءة فقال :
ألا يا شبيعة الحق ذوى الايمان والبر
ومن هم نصره الله على التحويف والزجر
فعند الست والتسعين قطع القول في العذر
وظل المتربصون بالدولة العباسية يقرأون في ارساد النجوم علامات
زوالها الى ما بعد نهاية القرن الثالث وبعد بداية القرن الرابع ، فقال
أبو طاهر القرمطى :

أغرکم منى رجوعى الى هجر
فعما قريب سوف يأتيكم الخبر
اذا طلع المريخ فى أرض بابل
وقارنه النجمان ، فالحذر الحذر
فمن مبلغ أهل العراق رسالة
بأنى أنا المهروب فى البدو والحضر
أنا الداع للمهدى لا شك أنى
أنا الضيفم الضرغام والحية الذكر

وقد تقدم ان الناس ظنوا بأبى العلاء المعرى انه من رصدة النجوم ،
فاذا بلغ بزمان أن يترقب فيه الضرير ارساد السماء فهو زمان تفعل فيه
العلامات الفلكية فعلها ، سواء أكان حب التغير هو الذى علق الأبصار ،
والبصائر بمسالك الكواكب ، أم كانت مسالك الكواكب هى التى شحذت
فى نفوسهم جهم للتغير وتطلعهم الى الغيب من بصير وضرير
وفحوى ذلك كله ان السماء والأرض فى عرف أبناء القرن الثالث
للهجرة كانتا تطلعان الى شئ ، وان الناس كانوا يتفاءلون بذلك
ويتشاءمون ، وأحرى الناس أن يتفاءلوا بعلامات التغير هم طلاب التغير
وجاءت الدعوة الفاطمية الى قوم متبرمين أو قوم غير مكترئين للدفاع
عن النظام القائم أو دفع النظام الجديد
كان بين خدام الدولة العباسية نفسها من يبغضونها أو ينكرون حقها ،

ومن كان منهم لا ينكر حق الخلفاء العباسيين فهو منكر لسلطان الترك والديلم ، معتقد أن أهل البيت المقبلين خير من أهل البيت الموليين ، أو أهل البيت الذين تولت عنهم الولاية عجزا وسفها فليس لهم منها غير الأسماء

وكان بطش العباسيين بأبناء على من أسباب الكراهة لأصحاب الحكم وأسباب العطف على طلابه ، فكان مع العباسيين من خدامهم وأعوانهم من يقدسون صاحب الدعوة العلوية ويمقتون أصحاب العروش في بغداد ، ولولا عامل من عمال بنى العباس في الرملة لاعتقل المهدي وقتل قبل أن يصل الى المغرب حيث أقام الدولة . يقول جعفر الطاجب في سيرته : « وصلنا الى الرملة فنزلنا بها عند عاملها ، وكان مأخوذا عليه فلم يدر من السرور برؤية مولانا المهدي ... كيف يخدمه ورفع المهدي فوق رأسه وقبل يديه ورجليه »

ثم قال ان النجائب وصل من دمشق الى الرملة يصف له المهدي وأمره بالبحث عنه والمهدي في داره فانكب الرجل على رجلي المهدي يقبلهما ويكي فطمأته المهدي قائلا : « طب نفسا وقر عينا ، فوالذي نفسى بيده لا وصلوا الى أبدا ، ولنملكن أنا وولدي نواصي بنى العباس .. »

وتبين غير مرة ان النجابين الاسماعيليين كانوا أسرع الى تبليغ المهدي وأعوانه من النجابين الذين تعقبوه وهم موعودون بالجزاء الجزيل على اعتقاله وتسليمه ، واستخدم الحمام الزاجل في تبليغ الرسائل الى المهدي وهو في طريقه كما جاء في روايات مختلفة ، فان صح هذا فهو دليل على ولاء عجيب وإيمان برسالة المهدي على طول طريقه من الشام الى المغرب ، وان لم يصح فقد صح ما هو أغرب منه وهو نجاة المهدي من عشرات الولاة والعمال في الشام ومصر والمغرب ، بل نجاته بعد دخوله الحبس حيث اعتقل قبل مصيره الى المغرب الأقصى

وربما كان ولاء عامل تابع للأمراء أقل في باب العجب من ولاء أمير قائم على عرض دولة كالدولة المصرية ، لا تعترف لخلفاء بغداد من بنى العباس

بغير الدعاء على المنبر في يوم الجمعة ، فقد روى عن كافور الأخشيدي
ان الشريف أبا جعفر مسلم بن عبيد الله ناوله سوطه - وقد سقط منه
- فاستعظم كافور هذا التواضع منه ومال على يده يقبلها وهو يقول :
« نعت الى نفسى ، فما بعد أن ناولنى ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم
سوطى غاية يتشرف لها .. »

هذه هى أشرط الساعة وعلامات الزمان التى وافتها دعوة الدعاة
الفاطميين على قدر ، ولو لم تقترن دعوة الدعاة بهذه الأشرط التى تجمعت
من فعل الحوادث التاريخية والبواعث النفسية لما تمكن الدعاة وحدهم
من اقامة الدولة ولا تمكنوا من الاقتناع وهو أهم أعمال الدعاة

وتابع الأمر الى غاياته فنقول ان الدعوة والحوادث التاريخية والبواعث
النفسية كلها كانت خليقة أن تذهب سدى بغير نتيجة لو لم يقيض للدولة
بناة وموطنون من أصحاب السلطان فيها ، يأخذون بزمام الأمور
ويحسنون قيادتها على نهجها القويم الى أن تثبت دعائم الملك وتصمد
البنية الجديدة لغواشى الزمن ، وهى بعد التأسيس عرضة لطوارئ الهدم
والتوهين ..

وقد جرت العادة فى كل دولة جديدة أن يكون لها مؤسس وموطد :
مؤسس هو رأس الأسرة وموطد هو خلف له يتناول منه الملك ولما يستقر
قراره فيمنعه أن ينهار قبل أن يبلغ التمام ، ثم يتمه ويتركه لمن يأتون بعده
بناة أو مسترسلين أو هدامين ينقضون ما بناه الأولون

ولم تكن دولة الفاطميين شذوذا من هذه القاعدة ، فأسسها المهدي
عبيد الله ووطدها المعز لدين الله ، وكان كلاهما على نصيب وافر من
الخلائق التى تنبغى لبناة الدول وموطدى العهد ، فلو تابعت أعمال
الدعاة ودواعى الزمن دون أن يتاح للدولة هذان البانيان لما برز لها من
الأرض ركن ولا أساس

اتصف عبيد الله بقوة البنية وجمال السمات والهيبة ، كما اتصف باليقظة

مع سعة الحيلة ورباطة الجأش ، وعرف بالحزم واصالة الرأي وشدة
المراس واستعصاء المقاد على المكابرة والعناد ، واجتمع له حسن التصريف ،
فلم يفته قط أن يختار الوقت الملائم والرجل الملائم للعمل المطلوب كما
ينبغي أن يكون ، وأعان ذلك كله بحب العمارة والتنظيم ، فوجدت الدولة
الجديدة منه مؤسسا قليل النظراء

قل في قوة بنيته « انه كان بقوة عشرة رجال »

ولست هذه القوة نادرة في أبناء على من السيدة الزهراء ومن غيرها ،
فقد روى عن محمد بن الحنفية انه جلد الأرض بمصارع الروم الذي
جاء الى دمشق يتحدى الأقوياء في بلاد المسلمين كما تحداهم في بلاده ،
ولم تزل هذه القوة معهودة فيهم بعد الجيل الخامس ، فقليل عن يحيى
ابن عمر الملقب بالشهيد انه « كان له عمود حديد ثقيل يكون معه في منزله
وربما سخط على العبد أو الأمة من حشمه فيلوى العمود في عنقه فلا
يقدر أحد أن يحله عنه حتى يحله يده »

ولست قوة البنية شرطا في أصحاب العروش ، ولكن مؤسس الدولة
يحتاج اليها اذا وجبت عليه الرحلة أحيانا من مكان الى مكان فجأة وعلى
غير استعداد ، ووجب عليه أن يصبر على متاعب الاستخفاء ومتاعب
الحاجة وأن يصرع المطارد ويسبق المتعقب ويبرز للقتال ولا يزال على
أهبة لمقاومة أعدائه ومقاومة أنصاره المنشقين عنه ، فاذا تصدى لهذا ولم
يرزق ضلعه الأركان أو شك أن ينقطع بالمسعى دون غاية الطريق

أسعفته هذه البنية الوثيقة في مأزقه وفي أيام سلطانه ، وأسعفته معها
مهابة يمنو لها المؤمن به ومن يحاربه ولا يضر مودته ، فلما كان أسيرا
في المغرب الأقصى كان صاحب « سجناسة » ينكل بأعوانه ولا يجبر
على مجابته بما يسوءه ، وكان يعمل في مغيبه ما لم يكن يجترئ على
عمله وهو ناظر اليه

وقد تمت له المسعفات في مأزق الحرج باليقظة الجريئة والحيلة التي

لا تفارقها رباطة الجأش وعزة الكرامة . فلما خرج من الشام الى مصر هربا من خلفاء بغداد سيروا الادلاء الى كل بلد في الطريق ينادون على الناس بأوصافه ويبرئون الذمة ممن يراه ولا يدل عليه ، ويجعلون لمن يسلمه عشرة آلاف دينار وزلفى تنفعه عند الخلفاء والأمراء . واتفق انه صلى الصبح يوما في جامع عمرو فمرفه بعض المصلين بوصفه وهو يهيم بالخروج من المسجد « وضرب بيده على كم الامام وقال له : « قد حصلت لي عشرة آلاف دينار »

ولو رجل غيره في مثل ذلك الموقف العصيب لساخت به الأرض من الفزع ، ولكنه التفت الى الرجل غير مكترث وسأله كأنه خلو الذهن من كل خبر : وكيف ذلك ؟ قال : لأنك انت الرجل المطلوب . فضحك المهدي وعاد مع الرجل الى المسجد وهو يقول له : « عليك عهد الله وغلظ ميثاقه اني اذا جمعت بينك وبين الرجل الذي تطلبه كان لي عليك ولصديقي هذا خمسة آلاف دينار ! .. » ولعله تفرس في الرجل الغفلة فأخذه الى حلقة قد اجتمع الناس فيها ، وأدخله من جانبها وراغ منه .. وأجمع النية في تلك اللحظة على فراق مصر والمبادرة بالمسير الى المغرب

وفي مسيره الى المغرب تعقبه والى مصر وأدركه وتردد في وصفه فأطلقه ولاح عليه انه يحدث نفسه بلحاظه اذا تثبت من حقيقته ، فما عثم المهدي أن عاد بعد انطلاقه يبحث عن كلب من كلاب الصيد يتعلق به ابنه — وكانت تربيته لابنه كما تقول في مصطلح هذه الأيام تربية رياضية — فوقع في نفس الوالى ان رجلا يعود بعد النجاة في طلب كلب لا يظن به انه خائف على حياته وانه خارج في طلب الخلافة وقال لأصحابه : « قبحكم الله . أردتم أن تحملوني على قتل هذا حتى أخذه . فلو كان يطلب مايقال، أو كان مرييا ، لكان يطوى المراحل ويخفى نفسه ، ولا كان رجع في طلب كلب ... »

وقد يكون الوالى أطلقه لئلا أخذه منه كما يقول عريب ابن سعد في

تاريخه ، وانه خشى من أصحابه أن يرتابوا فيه ويرفعوا أمره الى رؤسائه- وأن يلحقوا من ورائه بالمهدى وركبه ، فكانت حكاية الكلب هذه حيلة لتضليل أولئك الأصحاب وصرفهم عن المطاردة وعن الوشاية بالوالى الى بغداد ..

ومن حزمه بعد مبايعته بالخلافة انه بادر على الأثر الى تجديد نظام الدعوة في المغرب وفي مصر واليمن والعراق وخراسان ، وحمله على هذا التجديد أن أمر الدعوة لم يكن مجتمعا في يديه أيام استاره ، فنولى الدعاة ندب أعوانهم بغير مراجعة المهدى في اختيارهم ، وتمود هؤلاء الاعوان أن يتلقوا أوامرهم من الدعاة الذين ندبهم واختاروهم ، ولم تكن عاقبة هذا النظام مأمونة على الخليفة الجديد ولا على الخلافة الناشئة ، فانه خلق أن يجعله عالة على أتباعه وأن يطع هؤلاء في الاستبداد به وعصيان حكمه . فتنقض نظام الدعوة وعزل رؤساء الدعاة ولم يستثن أكبرهم - داعى اليمن ابن حوشب - فعزله وهو الذى كان أستاذ دعاته في الأقاليم ، وكان منهم عبد الله الشيعى الذى سبق المهدى الى المغرب واستقدمه اليها بعد التمهد له وجئح القبائل على عهده ، وقد رابه من الشيعى هذا وأخيه العباس انهما على اتصال خفى بزعماء القبائل وانهما يستكثران على الخليفة أن يحصر السلطان في يديه ، ونمى اليه انهما يأتسران به ويبيتان النية مع زعماء القبائل على قتله ، فأمر بقتلهما وأظهر الرضى عن غيرهما ممن ظن فيهم الظنون ، فجعل يفرقهم في المناصب النائية كأنه يكافئهم ويعتمد عليهم ، وهو فى الواقع يقصمهم عن مواطن الخطر ويوقع بينهم الحذر والمنافسة

وأطلق دعاته الجدد ومن أبقى عليه من الأقدمين يجوسون خلال الديار الاسلامية ليشرخوا به ويخذلوا الأنصار حول أعدائه ، فانطلق رسله الى بلاد الإيويين بالأندلس وبلاد الادارسة بالمغرب ، ونشط رسله فى مصر واليمن والعراق وخراسان ، وأخذ يديه أزمة الثورات فى كل اقليم من

تلك الأقاليم ، فاستمهل أعوانه كلما تعجلوا الثورة وظنوا أنهم قادرون عليها وان الأوان قد آن للجهر بها ، ورأى هو بثاقب نظره ان ثورة الأطراف قبل فتح مصر ، أو قبل المسير اليها ، تغرير بالثوار ، وان الثورة بعد فتح مصر تنمة منتظرة قد تأتي عفوا وقد تنشب دفعة واحدة مع سقوط هبة الدولة العباسية ، فلا يعنى الثوار بالخروج عليها في غير حذر ولاندم وقد صح تقديره بعد تسيير الحملة على مصر وتجربة الموقف مرتين والراجح من المقابلة بين برامج المهدي انه كان مقصور اليد في حملاته على مصر . كان يوصى بالاناة والتريث حتى يفرغ العمل في التخذيل وكسب الأنصار ... ثم يضرب القدر ضربة من ضرباته التي تأتي على غير انتظار فيموت خليفة في بغداد ويستحكم الشقاق بين قواده ووزرائه ويفتتم الثائرون الفرصة قبل تمام الأهبة ، وتتوارد الكتب الى المهدي بالحض على الهجوم فلا يملك القعود والاكتفاء بالنظر الى هذه الأحداث من بعيد ، ولا يبلغ من ثقته بجدوى الهجوم أن يجمع له قوته ويترك المغرب خلوا من الجند مطمعة للمغيرين عليه والمنتقضين ممن بايعوه على دخل في أول عهده ، فينفذ الى المشرق حملة اضطرار لا حملة اختيار ، كالحملة التي عقد لواءها للزعيم البربري حباسة ثم حملة تبعة الاخفاق فيها والهرب منها بعد أن وصل الى الاسكندرية

أما الخطة التي يبدو انه كان يؤثرها ويختارها فهي ارجاء الحملة على مصر الى أن يفرغ من شأن المغرب ويقضى على فتنه ومشاغباته ، ويتنى فيه المدينة التي أزمع أن يتخذها حصنا له يحتمى به من المغيرين والمنتقضين ، وقد شغلته فتن المغرب زمنا وأخرجته ايما احراج بعد مؤامرة عبد الله الشيعي وأخيه فقمع الفتنة قمعا عنيفا لا رحمة فيه ، ولم يسكن الى مقره بالمغرب الا بعد الفراغ من بناء المهدي حوالى سنة خمس بعد الثلاثمائة ، فقال يومئذ : « لقد أمنت الآن على الفاطميات » ..

ولم تفارقه طبيعة الحيطة والدهاء في بنائه للمهدية ، فاتتقى لها موقعا

يحيط به البحر من جهات ثلاث ، وأقام عليها سورا من الغرب له بابان من الحديد زنة الواحد منهما ألف قنطار وبنى فيها الصهاريج وأجرى فيها القنوات وجعل للمؤن أقبية تسع ميرة الحامية عدة شهور ، واتحى جانبا ثم بنى على مقربة من المهديّة مدينة أخرى سماها باسم زويلة إحدى قبائل البربر التي تواليه ، وخصص زويلة للدكاكين التجار ومخازنهم تخفيها عن المهديّة وعزلا بين السكان ومراقبهم ، وأفضى الى خاصته بأنه انما فعل ذلك ليأمن غائلتهم . قال : « ان أموالهم عندي وأهاليهم هناك . فان أرادوني بكيد وهم بزويلة كانت أموالهم عندي فلا يمكنهم ذلك ، وان أرادوني بكيد وهم بالمهديّة خافوا على حرمهم هناك ، وبنيت بيني وبينهم سورا وأبوابا فأنا آمن منهم ليلا ونهارا ، لأنى أفرق بينهم وبين أموالهم ليلا وبين حرمهم نهارا »

بعد هذا استعد للحملة الكبرى على مصر وعقد لواءها نولى عهده القائم فدخل الاسكندرية سنة (٣٠٧ للهجرة) وتقدم الى الجيزة واحتل الفيوم ثم دهم الوباء جيشه وفتك بالألوف من جنده وحيل بينه وبين المدد من المغرب بعد انهزام أسطوله ، لأنه كان أضعف من أسطول العباسيين

ثم كانت الحملة الثالثة (سنة ٣٢١) وهو في وهن الشيخوخة ، وقيل انه مات قبل أن يحكم تديرها ، وبلغ من هيئته بين أهل المغرب أن خليفته القائم كتم خبر وفاته سنة كاملة ، مخافة الانتفاض ممن دانوا للحكم الجديد مهابة للمهدي ورهبة من تقمته

مات المهدي في سنة (٣٢٢ للهجرة) وولد في تاريخ مختلف عليه بين (سنة ٢٥٥ وسنة ٢٦٠ للهجرة) وبويع له بالخلافة وهو في نحو الأربعين ، فكانت مدة حكمه أربعين سنة ، ترك الدولة بعدها وقد استقر بنياؤها ورسخت أركانها ودانت لها الدول التي كانت تنازعه في المغرب وصقلية من الأغالية والادارسة ومن يؤازرهم من الأمويين بالاندلس والعباسيين . يبعد ، ولم يعرف عنه طوال أيامه بالمغرب حاكما أو غير حاكم

انه فرغ لمناعم نفسه أو غفل يوما عن سياسة ملكه ، وكانت له زوجة واحدة وانقضت حياته وفي سيرته رد بلسان الحال لا بلسان المقال على الذين رموه بالانتماء الى أعداء الدين ، بل أعداء الأديان وانه تواطأ سرا مع رسل الفساد والغواية لاستباحة المحرمات والاغراء بالفجور ، ولو لم يكن كذلك لما أبقي بعده ملكا مؤسسا يغالب عوادي الدهر من أول القرن الرابع الى نهاية القرن السادس ، أو يغالبها بآثاره الباقية الى اليوم



المُعزِّدين الله

واحتاجت الدولة الى التوطيد بعد التأسيس فقام بالقسط الأولى من هذه المهمة ابن حفيده الملقب بالمعز لدين الله ، وهو الخليفة الذي فتحت مصر وبنيت القاهرة في عهده ونقل مقر الملك اليها بعد انقضاء أربعين سنة على وفاة جده الكبير ، وقيل انها كانت نبوءة ممن يحسبون الأوقات في مراحل التاريخ بالأربعينات

تولى الملك بعد المهدي ابنه « القائم بأمر الله » ثم المنصور بأمر الله ، وكلاهما جدير بأمانة ميراثه وان لم يبلغ من العظمة مبلغ المؤسس من قبله أو مبلغ الموطن من بعده . فعزز القائم الأسطول واحتل الشواطئ الإيطالية حتى ثغر جنوة حماية لبلده من غارة القراصنة ، ومات قبل التمكن من صدّ الخوارج الذين أطعمهم فيه موت أبيه ولولا اعتصامه بالمهدية لدالت الدولة كلها في عشرة أعوام ، وارتقى ابنه المنصور الى العرش فاجتاح الخوارج أمامه وأسر زعيمهم القوى ابن كنداد وشتت جموعه ثم تردد بين صد الأمويين الذين أغاروا على مراكش في هذه الأثناء وبين صد الافرنج الذين خيف منهم على شواطئه فوزع قواه بين هؤلاء وهؤلاء ليوقف زحفهم ولا يخلو الطريق أمام أحدهم ، ومات مجهدا في سنة (٣٤١ للهجرة) فارتقى العرش ابنه « معد أبو تميم » المعز لدين الله الذي كان بحق صاحب دور التوطيد بعد انتهاء دور التأسيس

قلنا في كتاب « عبقرية خالد » ان ولاية أبي عبيدة على الشام كانت لازمة بعد ولاية خالد . لأن الدول تحتاج بعد دور الفتح الى غصن الزيتون مع السيف ..

وقد كان هذا شأن المعز في المغرب بعد جده .. فانه كان يحسن المجاملة الى جانب البأس والصرامة ، وكانت نشأته نشأة علم وفروسية أو نشأة غلبة بالبرهان وغلبة بالسيف والصولجان

كان المعز يحضر دروسه على أساتذته والحرب قائمة والمهدية محصورة، فكان يتلقى دروس الفروسية علما وعملا ولما يفرغ من مراجعة الطروس والأسفار ، وتعلم لغات الأمم التي تتصل بالخلافة الفاطمية جميعا ، فكان يحسن البربرية والرومية والايطالية والنوبية ، ويتوسع في علوم العربية ، وكان له شعر وثر يميل فيهما الى المحسنات لانتشارها على الألسنة والأقلام في تلك الأيام

ويروى عن أنفته من الجهل انه سمع من بعض خدمه كلمة صقلية لا يعرفها واعتقد انها كلمة شتم ومهانة فحفظها وأنف أن يسأل عن معناها ولم يرح حتى أتقن علم تلك اللهجة فاذا بالكلمة من أرذل شتائمها ، وقد أنف من جهلها فأصبح يأنف من أن يواجهه أحد بمثلها ..

وبويع له بالخلافة وهو في الرابعة والعشرين ، فهمته أول الأمر أن يستوثق من أمنع المعاقل التي يعتصم بها الخارجون على الدولة ، فصعد الى جبل أوراس وفيه من القبائل من لم يكن قد دخل في طاعة آبائه فبايعوه ، وأسرع اليه المخالفون يتقربون اليه لما أنسوه من مودته وكرمه وأظهر ما ظهر من خصال المعز التي يتصف بها بناة الدول انه كان حريصا على الاتقاع بالتجارب والعبر ، وانه كان يحسن اصطناع الرجال، وانه كان جيد الفراسة في أحوال الأمم واعتنام الفرصة من بينها لما يترقبه ويعقد الغزيمة عليه ..

فلم ينس هزيمة الاسطول في الحملة على مصر ، ولم يزل حتى أمن على شواطئه واستطاع بقوته البحرية أن يرد أساطيل الروم عن بلاده وعن جزر البحر الخاضعة لحكمه .. ثم جدّد حفر الآبار في الطريق الى مصر ليأمن قطع الزاد والماء عن جيشه

ومن اصطناعه للرجال انه كان يستخلص الخدام والاعوان ولا يفار

من تعظيمهم بين يديه بل يأمر الشعراء أن ينظفوا القصائد في مدحهم ويأذن لهم أن يخاطبوا بها في حضرته ، وكذلك أمر شعراءه أن يمدحوا قائده جوهر الصقلى وأمر العظماء والكبراء أن يترجلوا عند توديعه ، ولما تم لجوهر فتح مصر وأرسل وكيله الكتامى جعفر بن فلاح لفتح الشام تخطى هذا الوكيل جوهرًا عند تبليغ بشارة الفتح الى المعز فلم يبدأ بإبلاغها الى رئيسه « المباشر » ليبلغها من جانبه الى الخليفة ، فنضب المعز على جعفر بن فلاح ورد اليه كتبه ليعيدها من طريق جوهر اليه

ومن اصطناعه للرجال انه كان يعفو عن الشجعان من أعدائه ويوقع في نفوسهم الأمن والطمأنينة بالتجربة بعد التجربة حتى يحضوه الطاعة خالصة بغير ريبه ، ومن المشهور عنه انه كان اذا لقي أحدا من مخالفيه تركه ينصرف وهو يحسبه من حزبه ورأيه ، ولعل هذا كان سبب الاشاعة التى تواترت بين الرهبان والقسوس بتنصره وبقائه على النصرانية ، فان الخبر الذى جاء في كتاب « الخريدة النفيسة في تاريخ الكنيسة » لأحد الرهبان يقول انه اعتزل الملك وترهب ومات فدفن في مقبرة أبى سيفين ، ويقال في سر ذلك انه تحدى البطرق ايرام أن يزحزح الجبل فجاءه بمن زحزحه على ملاء من الأمراء والكبراء وقادة الجند ورؤساء الدواوين

والثابت من الأخبار يغنى عن هذه الاشاعات ، فان الخليفة المعز أمر قائده جوهر ألا يتعرض لمخالف في الدين ولا في المذهب بما يعطل شعائر دينه أو مذهبه ، وأطاع جوهر مولاه ، فبنى الدير الذى عرف بدير الخندق بديلا من الدير الذى أصابه الهدم عند تمهيد الارض لبناء القاهرة ، وجاء المعز فجدد كل ما تهدم من الصوامع والبيع وجدد كنيسة « مركوريوس » التى تسمى بكنيسة أبى سيفين (لأن القديس كان يرسم على صهوة جواد وفي يديه سيفان) ... وقيل انه أمر باقامة البناء على المجذوب الذى أثار الدهماء استنكارا لبنائها وآلى ليقين في حفرة الأساس حتى يقام عليه ، فلم ينقذه من مصيره الا شفاعته البطرق له عند الخليفة ..

فهذا وما جبل عليه المعز من الجاملة وما تعودته من الترحيب في مجلسه بالمتناظرين في الأديان والمذاهب هو على التحقيق أصل تلك الاشاعة عن مدفنه في مقبرة الكنيسة ، ولعلها اشاعة نبئت بعد عصر المعز بعدة سنين ، يوم كانت هذه الاشاعة وما اليها موئلي العزاء في أيام الخليفة الحاكم المخبول ، لمن كان يضطهدهم من المخالفين ، وبينهم مسيحيون ومسلمون من الشيعة والسنين

ومن تفرسه في استطلاع أحوال الأمم واغتنام الفرص انه عول من اللحظة الأولى على فتح مصر ونشر فيها العيون والدعاة وجاءه من مصر وزراء يستعجلونه ويستحثونه ، وتلاحقت الأنباء بسوء الحال واشتداد القلاء وقتك الوباء ، فلم يعجله ذلك كله كما أعجله ما سمعه عن تدهور الأخلاق بين ولاية الأمر ، ومنه في رواية المقرئى ان صبية عرضت في مصر للبيع وطلب فيها البائع ألف دينار « فحضر اليه في بعض الأيام امرأة شابة على حمار لتطلب الصبية فساومتها فيها وابتاعها منه بستمئة دينار فاذا هي ابنة الأخشيد محمد بن طعج وقد بلغها خبر هذه الصبية ، فلما رأتها شغفتها حبا فاشتريتها لتستمتع بها »

قال المقرئى : « فعاد الوكيل الى المغرب وحدث المعز بذلك فأحضر الشيوخ وأمر الوكيل ققص عليهم خبر ابنة الأخشيد مع الصبية الى آخره فقال المعز : يا اخواتنا ! انهضوا لمصر فلن يحول بينكم وبينها شيء ، فان القوم قد بلغ بهم الترف الى أن صارت امرأة من بنات الملوك فيهم تخرج بنفسها وتشتري جارية لتستمتع بها ، وما هذا الا من ضعف نفوس رجالهم وذهاب غيبتهم ، فانهضوا لمسيرنا اليهم .. »

وقد كان الفاطميون يحيون المواسم والمواكب ويتدعونها ويشجعون الرعية عليها ، ولكن المعز — على خلاف المعهود من سياسة أسرته — حظر الاحتفال بالنوروز بعد وصوله الى مصر منعا للتبذل الذى شاع فيه على آخر أيام الأخشيديين ، وتطهيراً للأخلاق مما أصابها في تلك الأيام وأدرك

منه المعز انه نذير بزوال ملك بنى الأخشيد

وقدم جوهر الى مصر فى سنة (٣٥٨ للهجرة) فاشترب عليه وجوه
الامة ورؤساؤها قبل التسليم أن يؤمنهم على عقائدهم ومألوقاتهم ، فكتب
لهم عهد أمانه الذى قال فيه : « ذكرتم وجوها التمستم ذكرها فى كتاب
أمانكم ، فذكرتها اجابة لكم وتطمينا لأنفسكم ، فلم يكن فى ذكرها معنى
ولا فى نشرها فائدة ، اذ كان الاسلام سنة واحدة وشريعة متبعة ، وهى
اقامتكم على مذهبكم وأن تركوا على ما كنتم عليه من أداء المفروض
فى العلم والاجتماع عليه فى جوامعكم ومساجدكم وثباتكم على ما كان
عليه سلف الامة من الصحابة رضى الله عنهم والتابعين بعلمهم ... ولكم
على أمان الله التام العام الدائم المتصل الشامل المتجدد المتأكد على
الأيام وكرور الأعوام ... »

ووضع جوهر أساس القاهرة ، ولم يشأ المؤرخون أن ينسوا شهرة
الفاطميين برصد النجوم - وهى شهرة صحيحة - فقالوا انها سميت
بالقاهرة لأن المهندسين أقاموا على أسسها حبالا وعلقوا فى الجبال أجراسا
لبسمها العمال عند حلول الرصد المطلوب ، وان غرابا وقع على الجبال
والمريخ فى الفلك فاهتزت الجبال وأخذ العمال فى وضع الحجارة فسميت
المدينة باسم القاهر الذى يطلقه المنجمون على المريخ ، لأنه كان فى معتقد
الأولين اله الحروب .. !

هذه القصة « أولا » تروى عن بناء الاسكندرية

وهى « ثانيا » لا تعقل ، لأن النجوم ترصد ليلا والفريبان لا تطير
بالليل ، ولو طارت ليلا أو نهارا لما كانت وقعة غراب على جبل كافية لدق
الأجراس على جميع الأسوار ، ولو كانت الأجراس تلحق بهذه
السهولة لدقت قبل وقوع الغراب على الجبل لأسباب كثيرة تحرك الجبال
كما تحركها هزة الغراب ، ولو كان تحقيق الرصد مبنيا على العلم لا على
الرؤية لأمكن أن يبدأ التأسيس فى ساعة معلومة بغير حاجة الى الأجراس

ثم من قال انه غراب وهو مجهول ؟ وكيف عرفوه . والمظنون ان المهندسين هم الذين حركوا الجبال ؟ ولم لا يكون طيرا آخر أو جملة من الطير ؟ ..

وقد رويت القصة وتناقلها المؤرخون وتقبلها الكثيرون ، وفي التنبيه الى مافيه من الاحالة عبرة لمن يصدق السمعة التي تخلقها الأقاويل من هذا القبيل ..

واتبع جوهر سنة دولته في تخطيط المدن وتشبيد العمار ، فانهم تعودوا أن يبدأوا بتجديد المعالم والشارات ليستشعر الناس ألفة العهد الجديد بالنظر والسمع شيئا فشيئا قبل مطالبتهم بتغيير ماتوارثوه وثبتوا عليه ، فشرع جوهر في بناء مسجد العاصمة الجديدة (٣٥٩ للهجرة) وسماه الجامع الأزهر على اسم الزهراء في أرجح الأقوال ، وكأنه أراد أن يستغنى بالعاصمة الجديدة ومسجدها عن القطائع عاصمة الطولونيين ومسجدها المشهور بمسجد ابن طولون ، وعن الفسطاط ومسجدها المشهور بالمسجد العتيق ، وكلتاهما - أى القطائع والفسطاط - كانت عاصمة للقطر في أوانها ، واستحدث الأمراء بعد خراب القطائع عاصمة خارج الفسطاط سموها العسكر ثم أنشأ الفاطميون القاهرة معقلا ومقاما فلأجهم في تجديد المعالم والشارات على ما ألعنا اليه



وبعد فراغ جوهر من بناء القصور التي أعدت لاقامة الخلفاء أبلغ المعز فقدم الى الاسكندرية (شعبان ٣٦٢ للهجرة) وجلس لاستقبال رؤساء المدينة والوافدين اليها للتسليم عليه ثم خطبهم قائلا انه لم يقصد الى مصر طمعا في زيادة ملك أو مال وانما قصد اليها لتأمين الأنفس وحماية طريق الحج ودرء الغارة عن ديار الاسلام ، وهو كلام يقول مثله كل فاتح ولكنه كان في برنامج المعز خطة تملئها الضرورة عليه ، لأن تأمين الطريق الى الحجاز كان ضامنا لاستقرار الدولة الفاطمية ودفع الشبهات عنها ، اذ كان القرامطة يعملون باسمها وكان أعداء الدعوة الفاطمية

يشيعون عن القوم أنهم يقطعون طريق الحج عملاً بمذهب الاسماعيليين
 ويزعمون ان الاسماعيليين يسقطون الحج من الفرائض ، فكان تأمين
 طريق الحجاز من قبل مصر والشام خطة تقضى بها مصلحة الحاكم
 والمحكوم ، ولم يلبث المعز في القاهرة سنة واحدة حتى تفاقم خطب النزاع
 بينه وبين القرامطة وأعلن البراءة منهم وأعلنوا الخروج عليه ، وزحفت
 جموعهم الى مصر ومعها قبائل البادية التي تطلب الغنيمة وتخشى من
 عواقب تأمين الطريق ، فاستعد لهم المعز بعدة الحيلة حقناً للدماء وأرسل
 الى زعيم القبائل البدوية حسان بن الجراح الطائي من يطعمه المال اذا
 تراجع وتتحى عن أصحابه ، ووعدته بمائة ألف دينار .. قبل الصفقة ،
 وخرج المعز للقتال على اتفاق بينه وبين ابن الجراح أن ينهزم هذا بجموعه عند
 التقاء الصفوف ، وقد فعل وحمل معه أكياس الدنانير ... ولكنها لم تحو
 من الدنانير الصحاح غير مئات تبدو على وجه الأكياس ومن تحتها قطع
 النحاس المذهبة يخفيها الزعيم المخدوع جميعاً عن شركائه ، ودارت الدائرة
 على القرامطة في ذلك اليوم فقتلوا من الغنيمة بالآلاف ودبت المخاوف
 والشكوك بينهم وبين أصحابهم فلم يرجعوا بعدها الى غاراتهم على مصر
 ولم ينته عهد التوطيد بانتهاء عهد المعز (في سنة ٣٦٥ للهجرة) فان
 ابنه العزيز الذي تولى الملك بعده كان من كفاة الملوك وكانت طاعته
 غالبية على المغرب ومصر وجزيرة العرب لا تخرج عليه خارجة فيها الا عجل
 بقمعها وأعاد الأمور في أرجاء الدولة الى نصابها ، ولكنه مات (سنة
 ٣٨٦) وقد بدأت في أيامه دسائس القصور وسياسة الحريم ، وتناثرت
 هنا وهناك بذور الانحلال التي اختفت الى حين في ابان فطرة الدولة
 وزهوها ، ثم برزت وتفرعت مع ادبار الأمور وتعاقب الضعفاء من
 الأمراء ..

الحاكم بامر الله

قام بعد العزيز على سرير مصر أسطورة في شخص انسان ، لو لم يكن

تاريخه خبرا يقينا لشك فيه المؤرخون أو جزموا بانكاره ، اذ كان مجموعة من النقائص والفرائب يكذب بعضها بعضا ولا يتصور العقل لأول وهلة انها تصدر من انسان واحد ذلك هو الحاكم بأمر الله ..

كان يعمر ويخرب ، وكان يلين ويقسو ، وكان ينهى عن المراسم ثم يفرض منها ما يشبه العبادة ، وكان يجيز شعائر أهل السنة وأهل الذمة ثم بمنعها ويبطش بمن يعلنها .. وكان يحرم المباح ويبيح الكفر البواح ، وكان يبدل الليل بالنهار والنهار بالليل ، فمن فتح دكانا بالنهار جلده ومن أغلق دكانا بالليل رماه بالعصيان ، وكان يعتق العبيد والاماء ويفرق عليهم الهبات والأرزاق ثم يستعيد الأحرار ويدينهم بما يأتف منه الأرقاء ، وكان يخرج الى غيران الجبل في الظلام ويختبئ في حجرات قصره منذ مشرق الشمس الى المغرب ، وكان يدعى علم الغيب ويعاقب من يحرس ماله ومتاعه كأنه يشك فيه ، ثم يحاسب على الصغائر التي يغفرها المتتطسون ..

قال ابن خلدون : « ان حاله كان مضطربا في الجور والعدل والاخافة والأمن والنسك والبدعة » . وقال ابن خلكان : « انه كان جوادا سمحا ، خيئا ماكرا ، رديء الاعتقاد ، سفاكا للدماء ، قتل عددا من كبراء دولته صبرا ، وكان عجيب السيرة يخترع كل وقت أمورا وأحكاما يحمل الرعية عليها .. »

ولم يذكر عن ملك في أحوال العقيدة ماذكر عن هذا الحاكم بأمر الله : وبأمره ، وبأمر المأمورين والأمراء

فمن مؤرخي القبط من يقول انه مات على النصرانية ، ومنهم من يقول انه كان يعبد المريخ ويتوهم انه يراه ويتحدث اليه ، ومن مؤرخي السنة من يقول انه ادعى الربوبية ، ومن أتباعه اليوم من ينفي الموت عنه ويزعم انه صعد الى السماء ليعود الى الأرض في آخر الزمان ، وأطبقت النقائص على تاريخ حياته بتاريخ وفاته ، فلم يعلم أحد متى مات وكيف مات

وفى رأينا بعد هذا ان سيرة الحاكم هى أعجب السير وأوضح السير
فى وقت واحد ...

هى أعجبها فى موازين النصوص والأوراق : وهى أقلها عجبا فى ميزان
علم النفس الذى لم ينفصل عن التاريخ قط فى الكلام عن دولة كما انفصل
عنه فى الكلام على ملوك هذه الدولة

واضح من تطبيق علم النفس على أعراض هذا الرجل انها حالة من
حالات الهوس بالاسرار أو الحالات التى تعرف بهوس الغموض

Mystic Hallucinosi

أصحاب هذه الحالة مستغمضون مولعون بالأسرار ، يفرطون فى التفاؤل
والتشاؤم لايمانهم بالرموز واعتقادهم ان الغيب يتحدث اليهم عن
مكنوناته بتلميحات من الحوادث والمعانى المزدوجة التى تحمل فى أطوائها
ماينم عليه ظاهرها للعارفين ، واذا غلا الظن بأصحاب هذه الحالة كانت من
الحالات التى تختلط بمرض الاضطهاد ، فيقع فى روع المريض أن الناس
بضمرون له الشر ويتعقبهم بالتجسس والاستطلاع ، وينتقم منهم للوهم
انعراض والشبهة الكاذبة ، لأنه يصدق كل خبر عنهم غير الخبر الصراح
ويسكن المتهمسون بالأسرار الى مناظر الظلام ، ويستهوهم الليل
بخفائيه ، وتروقههم الوحدة فى الخلوات ..

وليس المصاب بهذه الحالة مجنونا ذاهل الحس عما حوله فى جميع
الأوقات ، بل هى نوبات تمترية ولا تمنعه أن يبدع ابداع العباقرة
والموهوبين فى بعض الفنون

أما علة هذا المرض فأنصار فرويد يرجعون بها كمادتهم الى صدمات
الطفولة وأزماتها التى ترتبط بالجنس على الخصوص ، فتكمن فى الوعى
الباطن وتتمكن منه على غير علم من ضحيتها ، حتى تنفجر دفعة واحدة
أو رويدا رويدا فى مقتبل الشباب

وغير « الفرويديين » يملونها باضطراب الحواس ولاسيما حاسة
السمع وحاسة البصر ، فيتوهم المريض انه يرى ويسمع ما ليس يراه
الأصحاء ولا يسمعونه ، ويحدث أحيانا أن ينظر الى الشئ المائل فلا يراه

ويصنف الى الصوت البين فلا يسمعه ، وقد يتفقون مع جماعة فرويد في الرجوع بالغة الى صدمات الطفولة وأزماتها دون أن يربطوها بالمسائل الجنسية ..

هذه الأعراض كلها ظاهرة فيما روى عن الحاكم من شتى المصادر ، ولم يكن الحاكم بمعزل عن البيئة التي تندس فيها الآفات الى نفس الطفل الناشئ ، فقد نشأ الحاكم كما أسلفنا في عهد دسائس القصور وسياسة الحریم ، وتركه أبوه وهو في الحادية عشرة من عمره وأقام على وصايته ثلاثة متنافسين هم المملوك برجوان والقاضي محمد بن النعمان والحسن بن عمار وعيم قبائل البربر من كتامة ، وأول هؤلاء برجوان كان غارقا في دسائس القصور وسياسة الحریم

وقد أحاطت هذه الدسائس بالحاكم وهو في سن الخطر ، لأنه لم يكن من الطفولة بحيث يجهل ماحوله ، ولم يكن من الفتوة بحيث يدرك مايطاط به ويملك الوسائل الى استطلاع . كان في الحادية عشرة وكانت كل خفية من خفايا الدسائس تغريه بالتطلع وتوسوس له بالريبة والتساؤل . فاذا كان مع هذا قد نشأ في بيئة التنجيم وكبر وهو يصنف الى أحاديث الباطن والظاهر وأسرار الغيوب التي تنكشف للواصلين من الأئمة ، فلا عجب في ابتلائه بتلك الآفة ، آفة الهوس بالأسرار أو الولع بوساوس العموض ، ثم يجهز على البقية الباقية من عقله أولئك الوزراء والعشراء الذين يتلمسون مواطن الضعف في نفوس الأمراء الناشئين فيمعنون في استغلالها ويبالغون في تحسينها وتزيينها ، كما فعل الدرزي والأخرم من حاشية الحاكم المقربين ، اذ قيل انهم وسوسوا له بمذهب الحلول وخاطبوه مخاطبة الأرباب ، وأطبقت آفة الاطلاع المضلل على آفة الاستطلاع المكبوت ..

ولم يكن الحاكم من المرفقين في الشهوات فتختل أعصابه من قبل الاسراف ، ولم يكن يعاقر للمخمر أو يستطيها بل كان يحرمها وينهى عنها ولم يشرب النبيذ الا بالطاح طبيه الذي خطر له أن يعالجه بادخال السرور

الى نفسه فى مجالس الفناء مع يسير من الشراب ، وانما « عرض له كما قال الطبيب يحيى الانطاكى فى تاريخه تشنج من سوء مزاج يابس فى دماغه وهو مزاج المرضى الذى يحدث فى المالنخوليات واحتاج فى مداواته منه الى جلوسه فى دهن البنفسج وترطيه به ، وان كثرة سهره ايضا وشغفه بمواصله الركوب والهيمن الدائم مما يقتضيه هذا السوء المتقدم ذكره ، وان أبا يعقوب اسحاق بن ابراهيم بن انسطاس لما خدمه استماله الى أن تسامح فى شرب النبيذ وسماع الأغاني بعد هجره لها ومنع الكافة منها ، فانصلحت أخلاقه وترطب مزاج دماغه واستقام أمر جسمه ، ولما مات أبو يعقوب وعاد الى الامتناع عن شرب النبيذ ومن سماع الفناء رجع الى ما كان عليه »

تلك هى خلائق الحاكم كما يصورها علم النفس ولا يصور لنا فيها شيئا من تلك الأعاجيب التى يستغربها مؤرخو النصوص والأوراق ، فان طفلا يصاب بالتشنج وتحيط به فى سن المراهقة دسائس القصور التى تحيط بالملوك الصغار ، وينشأ وهو يسمع الأحاديث عن التنجيم وأسرار البواطن والغيوب ، ثم يتلى من حوله بالمتزلفين والمنقبين عن مواطن الضعف فى نفسه الحائرة - غير بدع أن يصاب بهوس الأسرار وأن تصدر منه تلك النقائص التى ينساق فيها على الرغم منه أو التى ينساق فيها مختارا لأنه يتوهم انه يروض نفسه بالتكشف والتهجد ، وحمل الناس عليها والتقرب الى الله بعقاب من ينحرف عنها ، فتتكشف له الحجب التى لاتزال مسدلة دونه ، ويتهم نفسه كلما خفيت عليه مساتيرها بنقص فى الرياضة وقصور فى العبادة ، فلا يزال دهره بين خشوع العابد ومحاولة اليأس وقلق الحائر وايمان المستريح الى الظنون ، ودعوى المصدق لما يلقى عليه مما يستريح اليه

وسواء صح أن نكبة الحاكم كانت احدى جرائم « الحريم » ودسائس القصور أو كانت نكبته جريرة المرض وحده فقد صدقت فراسة المزمع فى عاقبة التكثر من الزوجات والجوارى وأخذت سياسة القصور تتشعب

وتستشرى حتى تناولت كل شىء فى الدولة والمجتمع ، وكانت جرائرها آخر الأمر شرا قائما بذاته وشرا محسوبا عليه سائر الشرور ، لأنه كان حائلا دون اتقائها ومنعها كما كان حائلا دون معالجتها بعد وقوعها

فمن جراء دسائس القصور تعددت قوى الجيش وشجرت بينها نوازع الشقاق تبعا لاختلاف الأحزاب فى كل حريم ، فكان للدولة قوة من الترك وقوة من السودان الى جانب القوة التى كانت لها من البربر والعرب ، وأصبح حراس الأمن أول المزعجين للأمنين ولأنفسهم وللقيادة والحكام ولم يمس غير جيل واحد على قيام الدولة فى مصر حتى ابتليت بسياسة « البيروقراطية » أو تحكم الدواوين فوق ما ابتليت به من سياسة الحريم ..

وسبب هذه الآفة ولاية بعض الخلفاء فى سن الطفولة وولاية خلفاء آخرين كالأطفال وان بلغوا مبلغ الرجال . فقد ركنوا الى ترف القصور وقنعوا من الوزراء بجلب المال اليهم كلما طلبوه ، فقبض الجباة ورؤساء الدواوين والوزراء على أزمة الثروة وعلى أزمة السياسة وطمعوا لأنفسهم ولسادتهم فاستباحوا المصادرة وجمع الاتاوات من الرشوة والارهاب عدا ما يجمعون من الضرائب فى غير موعد

والمصائب لا تأتى فرادى كما يقال ، فان المجاعة من الداخل وهجوم الصليبيين وغير الصليبيين من الخارج قد أصابا الدولة بعجز فوق عجز حتى تعذر عليها التماسك والدفاع ، فحق عليها القول

وقد سمي عصر الخليفة « المستنصر » بالعصر الذهبى فى الدولة الفاطمية مع ما كان يتخلله من القحط والمجاعة والوباء ، وما سمي عصره بهذا الاسم لأنه صنع فيه شيئا خلال ستين سنة قضاها على العرش منذ جلس عليه وهو فى السابعة (سنة ٤٢٧ هجرية) الى أن مات وهو يدلف الى السبعين ، ولكنه كان عصرا كموسم الحصاد الذى تبرز فيه الثمرات والأشواك وتتضج فيه السنابل وما يحملها من الهشيم الذى ستذروه الرياح عما قريب أو تطمعه النار ذات الوقود

فلما مات تعاقب بعده على الخلافة من لا يحسب من البناء ولا من الهادمين ، وانما هو مهدوم تتداعى تحته قواعد الملك ، وقد يفارقها وهو قتيل ..

وكان بنو أيوب قد أخذوا بزمام السلطان في مصر قبيل انتهاء الدولة الفاطمية ، فلما استقر الرأي في أيام صلاح الدين على الدعاء للخليفة العباسي بدلا من الخليفة الفاطمي الملقب بالعاقد ، تجاوزت المناير بالدعاء الجديد ولم يعلم به الخليفة الذي تحول عنه الدعاء ، لأنه كان يجود بنفسه في مرض الوفاة ، فكانت سنة سبع وستين وخمسائة للهجرة هي خاتمة الأجلين : أجل الخليفة الذي عمر إحدى وعشرين سنة ، وأجل الدولة التي عمرت بين المغرب ومصر مائتي سنة وسبعين

وقد عزل أمراء الدولة بعد موت عميدها منفردين ليتقرضوا بغير عقب ، وقال المقرئ عن صلاح الدين والخليفة الأخير : « وأضعف العاقد باستنفاد ما عنده من الأموال فلم يزل أمره في ازدياد وأمر العاقد في نقصان ... ومنع العاقد من التصرف حتى تبين للناس ما يريد من إزالة الدولة ... فلم يبق للعاقد سوى إقامة ذكره في الخطبة .. هذا وصلاح الدين يوالى الطلب منه كل يوم ليضعفه ، فأتى على المال والخيال والرقيق وغير ذلك حتى لم يبق عند العاقد غير فرس واحد فطلبه منه وألجأه الى إرساله وأبطل ركوبه من ذلك الوقت وصار لا يخرج من القصر .. »

هذه قسوة لم يحسبها التاريخ على صلاح الدين ، لأنها من قسوة الزمن وجناية الأسلاف على الأخلاف ، أو هو قد حسبها في حساب الموازنة بين المناقب والمعائب ، وبين حكم المروءة وحكم السياسة المشنوعة ، وبين القضاء الذي يجريه صاحبه ، والقضاء الذي يجري على قاضيه فيجزيه وكأنه يعاقبه ، فرجحت كفة الاقبال وهو دائم الرجطان ودالت دولة الزوال فشالت كفتها في ميزان الزمان

حَضَارَةُ مُحَضَّرَةٍ

إذا استثنينا الحضارات المصرية الأولى في أيام الفراعنة جاز أن يقال أن حضارة مصر في عهد الفاطميين لم يعرف لها نظير بعد الميلاد ، ولا استثناء لعهد البطالسة ، لأنه عهد غلبت فيه الصبغة الأجنبية على الصبغة الوطنية ، خلافا للحضارة في أيام الفاطميين ، فإن صبغتها المصرية كانت غالبية على كل صبغة ، ومن ثم لم تتكرر في وطن آخر على هذه الصورة ، وبقيت مصر على مذهبها الديني الذي كانت عليه قبل قيام الدولة بين ربوعها ..

وتصدق كلمة الحضارة هنا على كل حضارة تقاس بمقياس الثقافة أو مقياس الصناعة أو مقياس الثروة أو مقياس الشؤون الاجتماعية فلم توجد في مكتبة بعد مكتبة الاسكندرية خزائن للكتب كالخزائن التي وجدت في القصر الشرقي وتفاوتت تقديرها بين ستائة ألف مجلد ومليونين ، حسب اختلاف التقدير على ما يظهر بين عدد الكتب وعدد النسخ ، وقد كان فيها لبعض الكتب عشرات من النسخ للاعارة أو الاطلاع ..

وتنافست القصور في اقتناء الكتب النادرة ، فكان في كل قصر مكتبة تحتوى عشرات الألوف من كتب الفقه والأدب والرياضة والطب وسائر العلوم ..

وكان الخليفة يزور المكتبة العامة من حين إلى حين فيترجل ويخلع نعليه ، وتعرض عليه الكتب الواردة ليأذن بوضعها في الرفوف وأنشئت دار الحكمة ودار العلم . هذه للمتعلمين وتلك للمعلمين ، وفتحت فيهما مجالس المناظرة والمحاضرة ، يخصص منها قسم للرجال

وقسم للنساء ، وتنتقل المناظرة أحيانا الى قصر الخليفة فيشارك فيها أو يشرف عليها ، ويأذن لكل ذى رأى أن يدلى برأيه فيها ، وإن خالف به اجماع الآراء ..

وشاعت بين العامة ثقافتهم التى ترضيهم من ملاحم التاريخ المشهور أو المنظوم ، فلم يكن مجلس من مجالس السمر العامة يخلو من القصصين أو الشعراء المنشدين ، يسمعون جمهرة الناس طرفا من التاريخ الشعبى والقصص الشعبية ، عدا مجالس الوعظ والتفقيه التى تفتح للقصاص فى المعاهد أو المساجد من صلاة الفجر الى صلاة العشاء

وفى عهدهم أصلحت الدواوين ونظمت وسائل الرى وأعيدت مساحة الأرض وفكروا فى بناء الخزان عند أسوان ..

وتقدمت الفنون والصناعات ، وتنافس الفنانون والصناع فى هندسة البناء ، وفى النقش على الجدران والحفر على الحجارة الكريمة ، وشوهدت رسوم على النسيج تحكى اللوحات الفنية فى دقة التصوير وجمال التلوين ، وبلغ فن التصوير البارز والتصوير الغائر غاية ما يبلغه فى عصر من العصور ، وصيغت التماثيل من المعادن والجواهر فأوشكت قيمة المعدن المرتخص أن تناظر قيمة المعدن النفيس بفضل الصناعة والاتقان

وقد ألف الوصفون اذا بالغوا فى وصف العجائب أن يشبهوها بعجائب ألف ليلة وليلة ، ولكن عجائب ألف ليلة وليلة كانت كالنسخة المنقولة من ذخائر القصور فى تلك الحضارة ، لولا ان نسخة الحقيقة كانت هى الأعجب والأبداع من نسخة الخيال

وكانت التجارة مددا للصناعة لا ينقطع ولا يزال يعطيها كلما أخذ منها ويحثها على التوسع والمزيد : تأتى السفن من بحار المغرب وبحار الهند والصين بالخامات وتعود ببدايع المصنوعات ، أو تأتى ببدايع المصنوعات وتعود بما هو أبداع وأعلى ، دواليك فى مواسم العام كله لا تنسى ذاهبة آية على مدى الصيف والشتاء

وتعددت المواسم والمحافل الاجتماعية ، وحافظت الدولة الجديدة على

مواسم الأزمنة الفائرة وأضافت إليها ، فبعد الغاء النوروز عند مقدم الخليفة المعز الى القاهرة عادوا الى الاحتفال به وأضافوا انيه الاحتفال بانعطاس وخميس العهد وأعياد الربيع ، وأحصى من مواسم العام غير ذلك رأس السنة ويوم عاشوراء ومولد النبى ومولد الامام وموالد آل البيت ، وليالى الوقود وهى ليال من رجب وشعبان يحتفل بها قبل نوافل الصيام ..

وتناظرت محافل الليل ومحافل النهار ، ولا سيما فى شهر رمضان وليالى الأعياد ، وعود الخلفاء الشعب أن يستضيفوه ويمدوا له الأسطة ويخرجوا اليه يحيونه ويتلقون منه التحية ، وأصبح الوافدون الى مصر يحسبونها أمة فرغت للمواكب والمحافل والأسمار

ولم يكن قصارى ما فى تلك المواكب انها مظاهر لهو وفراغ تمطل فيها الأعمال وتنسى فيها تكاليف المعيشة . بل هى كانت فى حقيقتها معارض للفنون والصناعات ، يسير فيها أصحاب كل فن وصناعة على نظام معلوم ، ويتقدم كل طائفة نقييها وأساتذتها يترنمون بمفاخر فنونهم وصناعاتهم ويعلمون عنها ويدلون عليها ، ومن هذه المواكب ما بقى الى اليوم فى زفة رمضان وزفة المحمل وزفة جبر البحر ، ومن تلك المحافل ما بقى فى طلعة رجب ونصف شعبان وغيرها من ليالى الذكرى للأموات والزيارة للأحياء لا جرم كانت مصر ابان هذه الحضارة ملتقى الرواد والقصاد ، ولا جرم تحفل قصور الخلفاء والكبراء بمن يقصدون رحاب ذوى السلطان فى كل زمان ومكان ، وأولهم السياح والشعراء

فما من رحالة أنجبه العالم الاسلامى لم يتخذ من مصر مقاما أو مزارا فى تلك الأيام ، وما من قصر من قصور الملك فى المشرق والمغرب عمر فى ذلك العصر بمثل ما عمرت به القصور الفاطمية من الشعراء والأدباء

وأوصى الخلفاء والأمراء شعراءهم بالايجاز لازدحام القالة وكثرة المقال ، وزادوهم فى الجزاء لكيلا يقال انه قصد فى العطاء لا قصد فى الثناء ، فقال أحدهم ابن مفرج يخاطب الخليفة الحافظ :

أمرت أن نصوغ المدح مختصرا
لم لا أمرت ندى كفيك يختصر
ومن شعراء العصر من كان على خلاف مذهب الشيعة وكان يجهر
بهذه المخالفة كعمارة اليمنى الذى قال :
مذاهبهم فى الجود مذهب سنة
وان خالفونى فى اعتقاد التشيع
وهو الذى بخر نفسه على آثارهم وأوردها مورد الهلاك أملا فى
نصرتهم واستعادة مجدهم ، فهو أحق الناس برئائهم ، وقصيدته التى قيل
فيها انها أبلغ ما نظم فى رثاء دولة هى أحق ما نودع به عمرائهم المهجور :
لهنى ولهف بنى الآمال قاطبة
على فجيعتها فى أكرم الدول
قدمت مصر فأولتنى خلائفها
من المكارم ما أربى على الأمل
مررت بالقصر والأركان خالية
من الوفود وكانت قبة القبل
فملت عنها بوجهى خوف منتقد
من الأعداء ووجه الود لم يمل
أسلت من أسنى دمعى غداة خلت
رحابكم وغلت مهجورة السبل
أبكى على ماترات من مكارمكم
حال الزمان عليها وهى لم تحل
دار الضيافة كانت أنس وافدكم
واليوم أوحش من رسم ومن طلل
وكسوة الناس فى الفصلين قد درست
ورث منها جديد عندهم وبلى

وموسم كان في يوم الخليج لكم
يأتى تجملكم فيه على الجمل
وأول العام والميدين كان لكم
فيهن من وبل جود ليس بالوشل
والأرض تهتز في يوم القدير كما
يهتز ماين قصرىكم من الأسل
والخيل تعرض في وشى وفي شية
مثل المرائس في حلى وفي حل
وماهلتهم قرى الاضياف من سعة الأ
مطابق الا على الاكثاف والمجل
وما خصصتم بير أهل ملتكم
حتى عستم به الأقصى من الملل
كانت رواتبكم للذمتين وللض
سيف المقيم وللطاري من الرسل
ثم انطراز بتيس الذي عظمت
منه الصلات لأهل الارض والدول
باب النجاة هم دنيا وآخرة
وجبههم فهو أصل الدين والعمل
والله ما زلت عن حبي لهم أبدا
ما أخر الله لى في مدة الأجل
ولم يؤخر له في الأجل ، فانقضى أجل الدولة في سنة سبع وستين
 وخمسائة وانقضى أجل شاعرها في سنة تسع وستين وخمسائة

« قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكََ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ
الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ ، وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ . بِيَدِكَ
الْخَيْرُ . إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » .

فهرس

فاطمة الزهراء والفاطميتون

صفحة

٢٩٠	تمهيد
	القسم الاول : فاطمة الزهراء :
٢٩٤	ام الزهراء
٣٠١	نشأتها
٣٠٤	زواجها
٣١٨	بلاغتها
٣٢٤	في الحياة
٣٣١	وفاتها
٣٣٦	شخصية الزهراء
٣٤٠	الذرية الفاطمية

القسم الثاني : والفاطيون :

٣٤٦	الفاطيون
٣٥٣	النسب
٣٦٣	الباطنية
٣٧٦	الباطنية الفاطمية
٣٩٤	حسن بن الصباح
٤١١	السرية الباطنية
٤١٦	بناة وهدامون .. ومهدومون
٤٢٧	المعز لدين الله
٤٤١	حضارة محتضرة

2 2 2